الّنزعات التّأويليّة في سوسيولوجيا ماكس ڤيبر: قراءة نقديّة في المرتكزات الأيديولوجيّة

hermeneutics tendencies in the Sociology of Max Weber:

A critical reading of the ideological foundations

أ. د. علي أسعد وطفة

كّلية التربّية جامعة الكويت

watfaali@hotmail.com



النّزعات التّأويليّة في سوسيولوجيا ماكس ڤيبر: قراءة نقديّة في المرتكزات الأيديولوجيّة

أ. د. على أسعد وطفة

ملخص:

يقول لوران فلوري بأن ماكس ڤيبر لم يقرأ أبداً لذاته بل جرت قراءته لفترة طويلة بصفته نقيضاً لدوركهايم (Durkheim) تارة أو خصما لماركس (Marx) تارة أخرى أو بوصفه نقيضاً لهيغل (Hegel) حينا، أو نداً لبوبر (Popper) حينا آخر وقد شكلت هذه الوضعية معضلة معرفية حقيقة حجبت كثيراً من الزوايا القضايا المهمة في تفكير ڤيبر وفي نظرياته السوسيولوجية المهمة. وتأسيسا على هذه الإشكالية تبحث هذه الدراسة في الجوانب الغامضة والزوايا المهمة في فكر ڤيبر خارج سياقات التضاد والتخاصم والتنادّ1.

تسعى الدراسة إلى استكشاف الأبعاد التأويلية في سوسيولوجيا ماكس فيبر واستقصاء الجوانب الأيديولوجية في كتاباته وأعماله، وتسعى أيضا إلى التأمل في مناهجه المثالية وأنماطه النموذجية التي اعتمدها في تناول مختلف الظواهر الاجتماعية ولاسيما قضايا الدين والحضارة والبير وقراطية والرأسمالية.

وتكرس الدراسة بعضا من جوانها لدراسة مؤثرات ماكس ڤيبر وتأثيره ماكس في الفكر الإنساني منذ بداية القرن العشرين حتى اليوم. وأخيرا تتضمن الدراسة بعضا من أوجه النقد إلى المرتكزات السوسيولوجية والأيديولوجية في علم الاجتماع الڤيبري.

الكلمات المفتاحية: ماكس ڤيبر، سوسيولوجيا، علم اجتماع، كارل ماركس، نمط مثالي، نموذج مثالي، بيروقراطية، دين، رأسمالية، السلطة، الكارزمية.

(16)

¹⁻ مشتق من نِدّ وأنداد، وتعنى المماثل والمناظر.

ABSTRACT:

Laurent Fleury said that Max Weber has never been read for himself but was read for a long time as an antithesis to Durkheim at one time, or a rival for Marx at another, or as an opposite to Hegel at one time, or an opponent to Popper at another. This situation has formed a real epistemological dilemma that obscured from many angles the important issues in Weber's thinking and in his important sociological theories. Based on this problem, this study examines the ambiguous aspects and important angles in Weber's thought outside the contexts of opposition, contention and rivalry. The study seeks to explore the hermeneutical dimensions in the sociology of Max Weber and to investigate the ideological aspects in his writings and works and seeks to reflect on his ideal approaches and typical patterns that he adopted in dealing with various social phenomena, especially issues of religion, civilization, bureaucracy and capitalism. The study devotes some of its aspects to studying the influences of Max Weber and his influence on human thought from the beginning of the twentieth century until today. Finally, the study includes some aspects of criticism of the sociological and ideological foundations in Weberian sociology.

key words: Max Weber, sociology, Karl Marx, ideal model, perfect model, bureaucracy, religion, capitalism, power, charisma.

"لم يُقرأ ماكس ڤيبر أبداً لذاته: جرت قراءته لفترة طويلة بصفته نقيضاً لدوركهايم (Marx) تارة أو خصما لماركس (Marx) تارة أخرى أو بوصفه نقيضاً لهيغل (Hegel) حينا، أو نداً لبوبر (Popper) حينا آخر.... وقد شكلت هذه الوضعية معضلة معرفية حقيقة حجبت كثيراً من الزو ايا المهمة في تفكير ڤيبروفي نظرياته لسوسيولوجية المهمة"

لوران فلوي

"الجماهير تعيد حقن الدين بمعتقدات وممارسات سحرية بمقدار ما ترى نفسها محتاجة إلى الاعتقاد بقوى فوق طبيعية تتمثل في فكرة المخلص" ماكس ڤيبر¹

1- مقدمة:

يعد المفكر الألماني ماكس فيبر (Max Weber) (Ass - 1920) أحد أهم رواد علم الاجتماع المثيرين للجدل، وأحد أبرز مؤسّسيه في آن معا، وقد أثار فكره السوسيولوجيّ في بداية القرن العشرين جدلاً عنيفاً في الأوساط الأكاديميّة والفكريّة عامّة، ورجّة عنيفة في مجال التفكير السوسيولوجيّ والاقتصاديّ بين معاصريه، إذ تحوّلت السوسيولوجيا التي أبدعها إلى ظاهرة فكريّة يَجِدُّ الدّارسون في رصدها واستكناه مضامينها المستجدّة.

ولد ماكس ڤيبر (ماكسيميليان كارل إميل ڤيبر) في مدينة ايرفيرت (Erfert) بألمانيا في 21 إبريل عام 1864، لأسرة برجوازية ميسورة معروفة اجتماعياً وسياسياً، ولأب امتهن المحاماة، وبرع في اعتلاء مناصب سياسيّة وحزبية رفيعة، أبرزها عضويته في البرلمان الألمانيّ، وقد شكل الوسط الاجتماعيّ البرجوازيّ المميّز الذي ترعرع فيه ڤيبر الحاضن الأساسيّ لنشأة ڤيبر وإبداعه الفكريّ وانبثاق عبقريته التي اتّسمت إلى حد كبير بالطابع الموسوعيّ 2. وعرف عن ڤيبر شغفه الكبير بالمطالعة في مجالات الاقتصاد والتاريخ والإدارة والدّين والسّياسة وعلم الاجتماع، واستطاع في نهاية تحصيله العلميّ أن يبدأ مسيرة أكاديميّة مفعمة بالعطاء إلى أن أصبح واحداً من كبار علماء الاقتصاد والتّاريخ والمجتمع، ويصنّف على أنّه أحد كبار مؤسّسي علم الاجتماع، ولا سيما علم الاجتماع الإداريّ وعلم الاجتماع الدّينيّ. ومن اللاّفت أيضاً أن ماكس ڤيبر مارس العمل السياسيّ ببراعة، وتسنّم مناصب حزبية عالية في ألمانيا، كما عرف بالنّباهة والنّبوغ منذ نعومة أظفاره، ويعود ذلك إلى حصوله على تعليم متميّز في الاقتصاد والتاريخ والقانون والفلسفة واللاّهوت. وقد

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، ترجمة: محمود علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص 13.

²⁻ يقع كثير من الباحثين في خطأ القول إن قيبر ينتهي إلى الطبقة الوسطى، والحق يقال إنه كان من الطبقة البرجوازية: ماكس قيبر ابن عائلة من كبار الصناعيين وتجار الجهلة وأصحاب مصانع نسيج إنكليزية ألهانية، كان شاهداً التحولات الاجتهاعية الناجهة عن الثورة الصناعية، والده كارل أوغست قيبر (August Weber) الذي كان عضواً في جمعية تجار بيليفيلد (Bielefeld)، يجسّد شخصية المقاول في بدايات الرأسمالية. عمه كارل دافيد قيبر Car David Weber يمثل هو الآخر نموذج المقاول الرأسمالي إياه في العصر الجديد.

تأثر كثيراً بالفلسفة المثالية الألمانيّة عند هيغل، وكانط، وفيتشة، وشلنج، ونيتشة، كما تأثّر بجدليات ماركس واقتصاديّات آدم سميث واتّخذ منهما موقفاً نقدياً.

دافع ڤيبر عن أطروحة الدكتوراه حول "تاريخ الشّركات التجارية القروسطية" في عام 1889 محاطاً بإعجاب الحضور من طلاّب ومفكّرين ومتخصّصين في هذا الميدان، وحصل على درجة الأستاذية عن أطروحته الموسومة بـ «التاريخ الروماني الزراعي وأهميته للقانون الخاص والعام» في عام 1892. ولم يطل به المقام حتى عُين أستاذاً للاقتصاد السياسيّ في جامعة فرايبورغ في عام 1894. وشارك في نشاطات سياسيّة وأكاديميّة متعدّدة جداً، ومنها مساهمته في تأسيس "الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع في عام 1909. وفي المستوى السياسيّ شارك في تأسيس الحزب الديمقراطي الألماني، وفي عام 1919 رافق ڤيبر الوفد الألماني إلى باريس لحضور مؤتمر فرساي الذي وضع حداً للحرب العالميّة الأولى، وتوفّي في 14 يونيو 1920 في مدينة ميونيخ عن عمر يناهز 56 عاماً متأثراً بمرض الالتهاب الرئويّ تاركاً وراء إرثاً فكرياً مرجعياً خصيباً في مجال العلوم الإنسانيّة. وقد تجلّي هذا الإنتاج الفكري المهمّ في عدد كبير من الأعمال العلميّة التي ما زالت تشكل مصدر إلهام للمفكرين والباحثين والدّارسين في العلوم الإنسانيّة.

ويجدر بنا في هذا السّياق أن نستعرض بعضاً من مؤلّفات ڤيبر التي تدل على ثراء عطائه الفكري ويجدر بنا في مختلف حقول المعرفة الإنسانيّة، ومن البداهة القول: إن عناوين هذه المؤلّفات تمكّن القارئ من الاطلّاع على مسارات الخريطة الفكرية للمؤلّف، والتعرف إلى خصوبة عطائه المعرفيّ، وتجدر الإشارة في هذا السياق أيضا إلى كتابه المعروف: "الاقتصاد والمجتمع " (Economy and Society) الذي نُشر لأول مرة عام 1922. وكتابه الأشهر (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) (The Protestant Ethic and) (تاريخ الاقتصاد العام (the Spirit of Capitalism, 1904) مو مقالات في علم الاجتماع (Essays in Sociology)، ومنهجية العلوم الاجتماعية (Alexalage)، ومنهجية العلوم الاجتماعية (Methodology of the Social Sciences العلم ورجل (Science and politics as a craft)، والعلم والسّياسة بوصفهما حرفة (Man of science and Man of politic)، والعلم الموسيق (Man of science and Man of politic) وعلم الجتماع الموسيق (Sociology of music)، وعلم الجتماع الموسيق (sociology of music)، والمفاهيم الأساسية في علم الاجتماع الموسيق (sociology of music)، وعلم اجتماع الموسيق (sociology of music)، والمفاهيم الأساسية في علم الاجتماع (war

(19)

¹⁻ Weber, Max, Economy and Society. Edited by Max Rheinstein. Translated by Edward Shils and Max Rheinstein. New York: Simon and Schuster, 1922/1968.

²⁻ Weber, Max, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, 2nd ed. Routledge (original work published 1904). 2001.

³⁻ Weber, Max, From Max Weber: Essays in Sociology. Translated and edited by H. H. Gerth and C. Wright Mills. Oxford University Press, USA. 1946/1958.

⁴⁻ Weber, Max, The Methodology of the Social Sciences. New York: Free Press, 1949.

The City, 1912) وكتاب المدينة (Concepts in Sociology) ونظريّة التنظيم الاقتصاديّ والاجتماعيّ (Concepts in Sociology) المدينة (The Theory of Social and Economic Organization, 1925) وكتاب الدّين في الهند (Religion of India) وكتاب اليهودية القديمة (Ancient Judaism) والديانة في الصّين (Religion of India The Vocation Lectures: وأخيراً كتاب: نداء العلم أو العلم بوصفة رسالة (Science As a Vocation) وتدل هذه الأعمال آنفة الذكر على إسهامات ڤيبر في مجال العلوم الإنسانية، ولا سيما في مجالات المجتمع والاقتصاد والدّين والإدارة والسّياسة.

وقد شاع عن ڤيبر - في كثير من الأدبيّات - أنّ اهتمامه بعلم الاجتماع لم يبدأ إلاّ في السنتين الأخيرتين قبل وفاته، وأنه خلال هذه الفترة الزمنيّة القصيرة (أي في عامين) استطاع أن يفرض حضوره، بين كبار المؤسّسين لعلم الاجتماع، وقد يكون هذا لادّعاء أحد أكبر المغالطات في تاريخ الفكر، إذ لا يمكن لأيّ مفكر عبقريّ في التاريخ أن يؤسّس علماً، وأن يسجّل اسمه بين عمالقة الفكر في عامين من الزّمن فقط. ومن المؤكّد الواضح أيضا أنّ نبوغ ڤيبر السوسيولوجي احتاج إلى جهود كبيرة متواصلة بذلت طيلة عمره الزمنيّ القصير، وعندما نمعن النّظر في إنتاجه العلمي والفكري، نجد أنّ معظم أعماله كانت -منذ البداية - تدور في فلك علم الاجتماع وتحلّق في مداراته وتغوص في أعماقه.

وفي سياق آخر يمكن القول أيضاً: إنّ معظم الأعمال التي قدّمها ڤيبر في مجال الفكر الدينيّ ودراسات الأديان لا تخرج عن كونها فكراً سوسيولوجياً أصيلاً في منبته ومحتواه، وقد سجّل نفسه في هذا المسار البحثيّ بوصفه أحد أهم مؤسّسي علم الاجتماع الدّيني، وقد تجلّى هذا الأمر في كتابه: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" الذي يعدّ بحقّ من أهم الأعمال السوسيولوجيّة التي قدّمها ڤيبر للفكر الإنساني، وهذا الأمر ينسحب بشكل عام على كتابيه: الدين في الهند البوذية، والدين في الصيّن الكونفوشيوسية، وهي جميعها قد كُرّست لدراسة العلاقة السوسيولوجية بين الفكر والدين من جهة، وقيام الحضارة الإنسانية أو تمنعها من جهة أخرى، وهذه الأعمال كانت — بدون أدنى شكّ - أعمالاً سوسيولوجية في مختلف تجلّياتها وأبعادها ومرامها.

ومن يتأمّل ملياً أيضاً سيجد أنّ عدداً كبيراً من أعمال فيبر تغوص عميقاً في علم الاجتماع، ومنها كتابه: "مقالات في علم الاجتماع"، و "علم الجتماع"، و "علم اجتماع الموسيقى" و "المفاهيم الأساسيّة في علم الاجتماع"، و"نظرية التّنظيم الاقتصادي والاجتماعي".

¹⁻ Weber, Max. 1993. Basic Concepts in Sociology. Translated and with an introduction by H.P. Secher. New York: Citadel Press (original work published 1962).

²⁻ Weber, Max., The Religion of India: The Sociology of Hinduism and Buddhism. Free Press. 1962.

³⁻ Weber, Max, Ancient Judaism. Free Press, 1967.

⁴⁻ Weber, Max, The Religion of China. Free Press, 1968.

⁵⁻ Weber, Max, The Vocation Lectures: Science as a Vocation, Politics as a Vocation. Hackett Publishing Company, 2004.

ويرى كثير من النقاد أن معظم أفكار فيبر السوسيولوجية تتجلى في كتابه المعروف: "الاقتصاد والمجتمع" الذي نشر بعد وفاته بعامين، أي: في عام 1922، وهو الكتاب الذي قامت زوجته ماريان ڤيبر (Marian الذي نشر بعد وفاته. ويمكننا القول في هذا المقام إن النّضج السوسيولوجي في هذا الكتاب إنّما يعود إلى اختمار سوسيولوجي سابق تأصّل في التّكوين الفكريّ المبكر عند ڤيبر. ويمكننا بناءً على تصوّرنا هذا أن نعيد القول تأكيداً بأن أعمال ڤيبر بعناوينها وموضوعاتها تدلّ على أنّ الرجل كان سوسيولوجياً منذ البدايات الأولى لنشاطه المعرفيّ، وهذا لا يتناقض أبداً مع الطّابع الموسوعيّ لتكوينه العلميّ الذي جعله عالماً في الاقتصاد، والتّاريخ والإدارة والسّياسة.

ومن نافلة القول التذكير بأن أعماله الاقتصادية والتاريخية والإدارية كانت وثيقة الصلة بعلم الاجتماع، ولم تنفصل أبداً عن تطلّعاته السّوسيولوجية، ومن البيّن الواضح أن ڤيبر لطالما تناول هذه القضايا ضمن سياقاتها السوسيولوجية وتفاعلاتها الحيوية مع الظواهر الاجتماعية.

ومن المؤسف حقّا أن يد المنون خطفت ماكس ڤيبر مبكراً جداً قبل أن تبلغ رسالته الفكرية والإبداعية مداها، إذ توفي بصورة مفاجئة في ميونيخ (Munich) في الرابع عشر من حزيران 1920 وهو في السادسة والخمسين من عمره، وقد تصادفت وفاته مع نهاية أوّل جيل من علماء الاجتماع، أي: بعد موت إميل دوركهايم عام 1917 وجورج سيميل (Simmel) عام 1918(1). توفي ڤيبر في أكثر مراحل العمر نشاطا وحيوية وخصوبة، وهو الأمر الذي جعل كثيرا من المفكرين يعتبرون أن الموت المبكّر لڤيبر شكل خسارة كبيرة للفكر السّوسيولوجي وللمعرفة الإنسانية.

2- مؤثرات ڤيبر الفكرية:

شكّل الحاضن العائلي الاجتماعي الخصب الذي أحاط بماكس ڤيبر التربة الخصبة لنموّ عبقريته السّوسيولوجية، فعائلة ڤيبر كانت-بطرفيها (الأبوالأم) - من العائلات الألمانية الأكثر حظوة في مجال الفكر والثّقافة والعلم والأدب.، فقد عرفت هذه العائلة بعدد كبير من أبنائها المثقّفين والعلماء، من أطباء، وصناعيّين، ومحامين، ومهندسين، ومفكّرين، ومؤرّخين. وكان منزل والده "كارل أوغست ڤيبر" موئلاً للمفكرين والمثقّفين والسّياسيين في عصره، وقد تركت هذه الأجواء الثقافيّة الفريدة والمفعمة بالعطاء الثقافيّ أثراً كبيراً في توليد الطّاقة الفكريّة الإبداعيّة عند ڤيبر، وقد توّج تأثير العائلة هذا، كما أشرنا، بشغفه اللاّمحدود بالمطالعة والقراءة والتّحصيل منذ نعومة أظفاره.

2-1- عمالقة الفكر الإنساني:

لم تكن تصورات ماكس ڤيبر تنطلق من فراغ فكريّ، فالفضاء الثقافيّ الذي عاش فيه ونهل منه كان مترعاً بالنّظريات والأفكار التي أضرم نارها كبار المفكرين وعمالقتهم في عصره، وهو الأمر الذي جعل من النبوغ السوسيولوجي لڤيبر صعباً جداً، وذلك في عالم سادت فيه فلسفة كارل ماركس (Karl Marx)،

(21)

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص15.

وهيمنت عليه مطارق نيتشه النّقدية (Durkheim)، وهيمنت عليه مثالية هيغل (Hugle)، ووضعية كونت (Comte)، وبنيوية دوركهايم (Durkheim) وداروينية سبنر (Spencer). وفوق ذلك كلّه كان ماكس ڤيبر يُقرّ ويعترف بصعوبة الصّعود والإبداع في عالم فكري "هو في جزء كبير منه من صنع كارل ماركس وفريدريش نيتشه". ومع ذلك فإنّ هذا التحدي الكبير الذي فرضه كبار المفكرين العمالقة شكّل قوة حافزة لماكس ڤيبر في العمل على استلهامهم وتجاوزهم في آن معا. ويرى كثير من النقاد أنّ كارل ماركس كان له أكبر الأثر في التشكيل الفكري لماكس ڤيبر، وقد ألهمه في جوانب كثيرة من إنتاجاته الإبداعيّة في التاريخ والدّين والمجتمع، ومع ذلك كان ڤيبر يطرح نفسه نقيضاً لماركس، أو صورة معكوسة له في مختلف تجلّياته الفكرية والفلسفية.

وفي المستوى السوسيولوجي كان العصر يفيض أيضاً بحضور سوسيولوجي جبّار لروّاد علم الاجتماع العمالقة أمثال دوركهايم (Durkheim) وروّاد النزعة الكانطية الجديدة أمثال سيميل (Durkheim) وريكيرت (Wilhelm Dilthey). وكان عليه أن يتأثر بهم جميعاً، وأن يتجاوزهم في الآن نفسه. واستطاع في النهاية أن يتخطّى عقلانية ريكيرت ونزعة التّحليل النفسي عند سيميل ونسبيّة ديلتاي التّشكيكية، وكذلك مثالية هيغل، ومادّية ماركس، وتاريخانية غوستاف شمولر (Schmoller) وشكلانية منجر (Carl Menger).

ومن الواضح أنّ فيبر قد استلهم النزعة الوضعيّة عند كانط وبنيوية دوركهايم واقتصاديات آدم سميث وريكاردو، وسوسيولوجيا سان سيمون وفيكو وغيرهم المفكرين المعاصرين والسّابقين له. وقد شكّلت هذه المعطيات الفكريّة الكبرى، الكانطية، والوضعيّة، والماركسية نوابض التّفكير الفلسفي والسوسيولوجي عند ماكس ڤير.

2-2- مثالية قيبر:

ومن المعروف أيضا أنّ فيبر قد استلهم الفلسفة المثالية عند هيغل ولا سيما تجليّاته في "فلسفة الروح"، وعند كانط في فلسفته المثالية المتعالية، وكان متأثّراً بهما إلى حدّ كبير. ومن يتأمّل بعمق في منهجية فيبر سيرى بوضوح أنّ فيبر قد استلهم كانط في مقولته عن معرفة الشيء (The thing in itself) في ذاته ومعرفة الشيء في ظاهره، وكان من السّباقين إلى القول بإنّ المعرفة المادية معرفة ظاهرية لا تتعدّى الصورة الخارجية للقوانين التي تحكمها، وإن هذه الظواهر لا يمكنها أن تدرك جوهريا، ولا يمكن أن تعرف في جوهرها الغائيّ؛

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص11.

^{2 -} جورج زيمل (Georg Simmel) (1918-1858) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني من رواد الكانطية الجديدة.

^{3 -} ويلهلم دلتاي (Wilhelm Dilthey) (1911-1833) فيلسوف وطبيب نفسي وعالم اجتماع ألماني، يعتبر الممثل الرئيسي للفلسفة بوست-هيغلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن 20.

^{4 -} هاينريخ ريكرت (Heinrich Rickert :) َ فيلسوف ألهاني ، من مواليد 15 مايو 1863في مملكة بروسيا ، تلميذ فندلباند ، وممثل رئيسي لمدرسة بادن الكانطية المحدثة .

⁵⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص25.

لأنّ قوانين الطبيعية تدرك في حدودها الظاهريّة، أي على النّحو الذي تبدو فيه مظاهرها الخارجيّة، وقد يكون من الاستحالة بمكان إدراك جوهرها الثّاوي في أعماقها الداخلية المضمرة.

ومن الواضح أيضاً أنّ فلسفة كانط حول "الشيء في ذاته" (النومينون) أثّرت في سوسيولوجيا فيبر وفلسفته. ويُلاحظ النّقاد أنّ لهذه الفلسفة أثراً قويّاً أيضاً في فلسفة كلّ من كيرد وجرين، وولاس وواتسون، وبرادلي وكثيرين غيرهم في إنكلترا، وهم مدينون في إلهامهم لكتاب كانط "نقد العقل المحض"1.

ويعرّف النومينون (Noumenon -Noumène)² - وفقاً لكانط - بأنّه الشيء في ذاته، أو هو كلّ "ما يجاوز نطاق التجربة والإدراك الحسّي؛ إذن فهو حقيقة مجرّدة من مسلّمات العقل العملي، وهو "الحقيقة المطلقة التي تدرك التي تدرك بالحدس العقلي، وهي حقائق مجرّدة تأخذ صورة مسلّمات العقل العملي القبلية التي تدرك بالحدس العقلي كالحرّبة وخلود النفس، ووجود الله" قي والحقيقة المطلقة لا يمكنها - بحسب كانط - أن تدرك بالعقل النظري لعجز قوانينه عن الإحاطة بالمطلق 4.

وإذا كان العقل في مذهبه عاجزاً عن بلوغ حقائق الأشياء في ذاتها (الشيء في ذاته Noumena) فكيف لهذا العقل أن يتمكن من الوصول إلى حقيقة الذات الإلهية وهي أسمى معاني الوجود المتسامي على كل أشكال الحس؟ وهو ما يعني أن كانط " يُرجع الإيمان إلى وجدان الإنسان وشعوره الداخلي النفسي... أي إلى الضمير أو (القانون الأخلاقي) 6. وعلى هذا النحو يقرّر كانط أيضاً بأنّ العقل، بأدواته المنهجية المعهودة، لا يمكنه أبداً الوصول إلى معرفة الحقائق في جوهرها، و أقصى ما يمكنه أن يدركه لا يتجاوز مظاهرها، وأن جُلّ ما يستطيعه هو أن يرسم الحقيقة كما تتبدّى لنا في المظهر لا في الجوهر، وهذا يعني أننا لا ندرك الكون كما هو في جوهره أو ذاته أو في صميمه، بل غاية ما يمكن لمفاهيم العقل أن تفعله هو أن تقدم لنا تصوراً يتناسب مع خصائص العقل الإنساني وقدر اته 7.

¹⁻ ويل ديورانت، قصّة الفلسفة، مرجع سابق، ص374.

²⁻ يعد مفهوم النومينون (Noumenon) واحدا من أهم المفاهيم المركزية في فلسفة كانط، ويقصد به "الشيء في ذاته أو الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن وراء الظواهر" (Thing in itself)، ويقابله بالألمانية (Ding an sich). ويعود أصل الكلمة إلى الليونانية، فهو من كلمة (VOΟύμενον) المشتقة من الفعل (VOέω) ومعنى هذه الكلمة هو: أعتقد أو أعني. ويستخدم مصطلح "النومينون" بشكل عام كمصطلح مضاد لمفهوم الظاهرة "فينومينن" (Phenomenon) الذي يقصد به ظواهر الأشياء أو الأشياء من الخارج أو المواضيع التي تتلقاها الحواس.. و"النومينات" هي أشياء أو أحداث لا يمكن العلم بها عن طريق الحواس، لأنها مفاهيم مجردة مستقلة عن الحواس الإنسانية. وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك الأشياء بذاتها بل يستطيع أن يدرك مظاهرها وقوانينها الخارجية.

³⁻ جميل صليبا، المعجم الفلسفي (ج 2)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص513.

⁴⁻ انظر: على أسعد وطفة التربية الأخلاقية في الفلسفة الكانطية: مكاشفات نقدية معاصرة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، 2022.

⁵⁻ حيدر خضر، إيهانويل كانط الفيلسوف الشاهد على الحداثة والناقد لعيوبَها، مرجع سابق، ص319.

⁶⁻ وائل القاسم، عن «كانط» ونقد العقل المحض/الخالص، مرجع سابق.

⁷⁻ مصطفى حلمي، فلسفة كانط الأخلاقية (الواجب)، الألوكة، 2012/12/1. alukah. net/sharia/0/47183.

ويميز كانط، كما أوردنا آنفاً، بين عالمين: عالم محسوس وعالم معقول. والإنسان ينتي إلى العالم المحسوس بوصفه جسداً وإلى العالم المعقول بوصفه عقلاً وروحا؛ وهو من حيث إنّه جسد يخضع إلى قوانين الفيزياء والقوانين الطبيعية؛ ولكنه من حيث هو عقل يخضع إلى سنن العقل المستقلّة عن السّنن الطبيعية، وقوانين العقل مستقلة عن التّجربة ومتعالية عليها. ويستنتج من ذلك المنطلق أنّ كل ما يوجد في الطبيعية من أشياء ومظاهر محكوم بالقوانين الطبيعية والفيزيائية، باستثناء الإنسان الذي يمتثل لقوانين العقل بوصفه عقلاً، ولقوانين الطبيعة بوصفه كياناً حسياً وجسدياً 1.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كانط استخدم في تناوله المصطلحات الفلسفية المدرسية (السكولاستية) السائدة في الجامعة الألمانية في زمنه للبحث في قضايا العقل. "وقد قصد بالعالم المحسوس: العالم الذي تدركه الحواس، وأطلق عليه فيما بعد اسم: عالم الظواهر أو الظاهرات (الفينومينولوجيا) الحواس، وهو (Phenomenology) أما "العالم المعقول فهو العالم الذي يدركه العقل والفكر ولا تدركه الحواس، وهو فوق نطاق الحواس، وإن كان هو أصل الأشياء وأصل المدركات، وقد سمّاه عالم النوميني. وهي كلمة لاتينية مفردها Neumena وجمعها Neumena والمقصود بها حقيقة الأشياء في ذاتها لا في ظواهرها. والحواس تدرك الظواهر بينما العقل يدرك حقيقة الأشياء النوميني".

ومن يتأمل سوسيولوجيا ماكس ڤيبر سيجد بوضوح أنه تلقّف منهجية كانط واستفاد منها في التأسيس لمنهج سوسيولوجي يعتمد الفهم والتأويل؛ لأنّ الظاهرة الاجتماعية لا تدرك جوهرباً وفق منهجيّة الفينومينولوجيا آنفة الذكر أي: لا يمكن إدراكها في ذاتها، ولكن يمكن أن تفهم وتؤول وفق منهجيات مثالية قائمة على التجانس التي يمثلها المبدأ الشّعبي الذي يقول: "كل شيء ضده من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد".

فالظاهرة الاجتماعية ظاهرة إنسانيّة فريدة متفردة لا تتكرّر، ولا يمكن إخضاعها وفهمها عن طريق التّفسير المنهجيّ السببيّ، ولا يمكن قولبتها في قوانين جامدة، كما يفعل الوضعيون؛ لأنّ قولبتها تؤدّي إلى تشويهها وتدمير معانها. على هذا الأساس يرى ڤيبر أنّ علم الاجتماع القائم على منهجية التّفسير (السببي) لا يستقيم مع الظّواهر المجتمعية التي تحتاج إلى أنماط مثاليّة خاصة لدراستها وفهمها. ولذا يجب الانتقال من منهجية التّفسير (Explication) القائم على المحاكمات المنطقيّة والسّببية إلى الفهم (Comprehension) ومن ثمّ إلى التأويل (interprétation). فالتّفسير يقوم على استكشاف العلاقات السّببية والمنطقية للظواهر، ويعمل على استكناه القانونيات الاجتماعية التي تحمها، وهذا هو الأمر الذي تقوم به المنهجيات السوسيولوجية الوضعية (كونت،أو ابن خلدون، ودوركهايم، وماركس) ومثل هذا التفسير يبقى شكلياً لا يستطيع إدراك البعد الوجدانيّ في الظاهرة الاجتماعية؛ ولأنه كذلك يرى ڤيبر أنه التفسير يبقى شكلياً لا يستطيع إدراك البعد الوجدانيّ في الظاهرة الاجتماعية؛ ولأنه كذلك يرى ڤيبر أنه

-

¹⁻ محمد بوبكري، التربية والحرية: من أجل رؤية فلسفية للفعل البيداغوجي، إفريقيا الشرق، مارس 1997، ص42.

²⁻ محمد علي البار، الأخلاق أصولها الدينيّة وجذورها الفلسفية، دار كنوز المعرفة، عمان، 2010. ص 797.

³⁻ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يمكننا فهم الظاهرة وإدراكها جوهرباً بذاتها من خلال التبصّر الوجداني في أعماقها، وقد يكون ممكناً لنا أن نغوص في أعماقها من خلال التّأويل الذي يمكنه أن يستكشف الجوانب الخفية في الظاهرة المدرسة.

فالظواهر الاجتماعية ظواهر ذاتيّة ثقافية وجدانيّة غائيّة معنويّة لا تقبل القولبة، وتنفلت دائماً من قبضة السّببيّة، وعلى هذا الأساس يقرّر ڤيبر أنّ الظاهرة الاجتماعية لا تتكرّر أبداً، فهي ظواهر فريدة في التاريخ الإنسانيّ، وهي تحتاج للمنهج الوجدانيّ التفاعليّ؛ كي نستطيع فهمها وتأويلها لا مجرّد تفسيرها تفسيراً يحيلها إلى قوانين منطقيّة مجانسة لتلك التي نجدها في العلوم الطبيعية. وكأنّنا بماكس ڤيبر يريد أن يقول: إننا لا ندرك طبيعة الظواهر الاجتماعية إلّا من خلال المعايشة والتّفاعل الوجداني الصّميعيّ. فالقول: إن النار محرقة قانون سببيّ، ولكن لا يمكنه أن يجعلنا ندرك مفهوم الاحتراق إلّا إذا عايشناه وجربناه على مبدأ قول الشاعر لا يَعرف الشَوق إلّا مَن يُكابِدُه ولا الصَبابَة إلّا مَن يُعانها.

ويتضح لدينا - في هذا المقام - أنّ ماكس فيبرقد ألبس تصور كانط عن الشيء في ذاته "النومينون" والشيء في مظهره "الفينومينون" حلّة سوسيولوجية، وذلك بعد أن قام بتعديله وأسّس عليها منهجه في الفهم القائم على الاستبصار الذّاتي للوصول إلى جوهر الفعل الاجتماعيّ. فالفعل الاجتماعي يمكنه أن يفهم ويدرك ويفسّرويؤوّل ولا يمكنه أن ينتظم معرفياً في قو انين صارمة جامدة كالتي نراها في الطبيعة. ومع ذلك لا يتنكّر فيبر كلياً للمنهجية الظواهرية، بل يراها قادرة على تقديم تصور خارجيّ للفعل الاجتماعيّ، وبرى أنها غير مناسبة لفهم السّلوك البشريّ، وهي في أفضل أحوالها معرفة شكلية سطحيّة، تأخذ بما يظهر من السّلوك، وليس بما يستبطن منه ويفهم، وكما يقول المثل: عليك بما ظهر من الأمر وليس بما خفي واستتر. ومن أجل مزيد من التوضيح نقول هنا: إنّ منهجية ماكس فيبر تقوم على الفهم والتّأويل، أو بما يطلق عليه الهيرمينوطيقا وهو المنهج الاستبصاري الذي يقوم على التّأويل.

3- علم الاجتماع الڤيبري:

جاءت السّوسيولوجيا الڤيبرية على هيئة انفجار ثوريّ كبير في مجال العلوم الاجتماعية. وقد تجلّت هذه الانتفاضة الثّورية عبر رؤى سوسيولوجية ومعرفية مغايرة للنّظريات السوسيولوجية الكبرى التي روّج لها كبار المفكّرين من أسلافه ومعاصريه من أمثال: ابن خلدون وكارل ماركس ودوركهايم وأوغست كونت، وجاءت عطاءات ڤيبر المعرفية لتشكل قطباً جديداً في مجال الفكر الاجتماعيّ، وتياراً جديداً في مجال الفكر السوسيولوجي، غالباً ما يطلق عليه التيار التّأويلي في علم الاجتماع كما في العلوم الإنسانية.

ففي الوقت الذي كانت السوسيولوجيا العامة، في مختلف تياراتها الوظيفية والبنيوية والماركسية، تحثّ الخطى سعياً إلى تأسيس علم الاجتماع وتأصيل مناهجه على منوال المنهجيّات المعروفة في العلوم الطبيعية، يفاجئنا ماكس ڤيبر برؤية جديدة مختلفة تدعو إلى منهجيّة جديدة في علم الاجتماع تقوم على الفهم والتّأويل والتّفسير، رافضاً كلّ المنهجيات التي تتناول الظّواهر الاجتماعية بوصفها كيانات مادّية جامدة تخضع لقو انين مجانسة لتلك التي تقوم في العلوم الطبيعيّة. وهي نمط من المنهجيات الوضعية التي استنزفت طاقة المفكرين الاجتماعيين والمنظّرين في مجال السّوسيولوجيا، من ابن خلدون إلى فيكو

وسان سيمون وماركس ودوركهايم. وإذا كان هؤلاء جميعاً ينظرون إلى المجتمع بوصفه امتداداً للطبيعة في أكثر أشكالها تعقيداً، فإنّ ماكس ڤيبر، وعلى خلافهم جميعاً، ينظر إلى المجتمع بوصفه ذاتاً، وروحاً، وفكراً وثقافةً نوعيةً معنويةً لا تخضع للقو انين الجامدة التي ينادي بها علماء الاجتماع سابقيه ومعاصريه ولاحقيه. فالمجتمع طاقة روحية سيكولوجية نفسية معقدة لا يمكن للعلوم القانونية الوضعية أن تخترق جدرانها، ولا أن تكتنه معانها، كما يحدث في المادة الجامدة، بل يمكن فهمها وتفسيرها ومعرفتها. فالمجتمع خلاصة لتفاعل كينونات ذاتية، أو صيغة لتفاعل جدلي بين ذوات متفاعلة بالإرادات والنّو ايا والمعاني والقيم، وهي في جماعها تشكل نسيجاً نوعياً ثقافياً روحياً يستعصي على الانتظام في قو انين جامدة كالتي نعتمدها في استكشاف العالم المادّي، ومثل هذا النّسيج الثّقافي يحتاج من أجل فهمه إلى طاقة منهجيّة جديدة تعتمد منهجيات الاستبصار والتأمّل والحدس والاكتناه الوجدانيّ، وباختصار يحتاج السّلوك الاجتماعيّ إلى الفهم والتّفسير الذي يقوم على التأمّل المنهجي الاستبصاري الخالص.

فالظواهر الاجتماعية ليست كالذرات المادية التي تتحرك دون غاية أو معنى أو دلالة، وعلى العكس من ذلك، فالإنسان في علاقاته وتفاعلاته يتحرّك وفقاً لمبدأ الغايات والمعاني والدّلالات، وهذه لا تحكمها قوانين لأنّها من نمط الوجدانيات التي تنتظم في قوانين محدّدة. ولذا فإنّ الظواهر الاجتماعية ظواهر فريدة في عمقها ومحتواها وظاهرها، إنها تتميز بعمق وجدانيّ لا يُكتشف إلاّ بمنهجيّات وجدانيّة تعتمد التبصر والاستكشاف القائم على اكتناه العمق الدّلالي والمعنويّ في سلوك الإنسان. وباختصار يشكل الفهم والتّأويل والتفسير ثلاث مراحل أساسية في مستويات المنهج السّوسيولوجي عند ڤيبر"1.

3-1- الثورة المنهجية - من التّفسير إلى التّأويل:

استطاع قيبر أن يحقق حضوره المميّز في الحقل الاجتماعيّ، وأن يحقق نجاحاً كبيراً في تأسيسه لعلم الاجتماع التأويليّ (Interpretive Sociology) الذي يشكل نمطاً سوسيولوجياً مبتكراً ومختلفاً عن التيارات السائدة في علم الاجتماع، ولا سيّما الاتّجاهات البنيويّة والماركسيّة السّائدة في الحقل السّوسيولوجي. وتنطلق الفكرة الأساسيّة لماكس ڤيبر من رفضه الواضح للمنهجيّات الوضعيّة في علم الاجتماع، التي تحاول استكشاف القوانين الحاكمة للظّواهر الاجتماعية، وهذا يعني رفضه لسوسيولوجيا دوركهايم وسبنسر وأوغست كونت وغيرهم من المؤسّسين لعلم الاجتماع. ويستند رفضه هذا إلى أن الدّراسات الوضعية تأخذ طابعاً ظواهرياً، بمعنى أنّها تستكشف العلاقات الظّاهرية القائمة في المجتمع على غرار ما يجري في الطبيعة، وهذه المنهجيات لا تستطيع جوهرياً اكتشاف المعاني والدّلالات في السّلوك الإنساني الذي يتميّز بأنه سلوك غائيّ معنويّ ذاتيّ لا يمكن إدراكه بالقانونيات المعروفة في السّوسيولوجيا الوضعية (Positive sociology)، وجلّ ما يمكن للمناهج الاجتماعية القائمة فعله هو أن تستكشف ظواهر الحقيقة الاجتماعيّة، دون القدرة على فهمها وإدراكها وتأويلها وفقاً للمعاني والدّلالات الإنسانية.

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 29.

لا يمكن فهم السوسيولوجيا القيبرية إلّا من خلال الفهم الأعمق للثورة التي أعدها في مجال المنهجية التي أصّلها في تناول قضايا المجتمع وظواهره، ففي الوقت الذي رسخت فيه معالم علم الاجتماع الجديد المنهمك بالبحث عن القوانين التي تحكم المجتمع بدءاً من ابن خلدون، مروراً به جامباتيستا فيكو¹، وسان سيمون، وأوغست كونت، وهربرت سبنسر، ودوركهايم، وكارل ماركس، وغيرهم من المفكرين، وعلى خلاف المنهجيات الوضعية هذه جاء إعلان ماكس فيبر ميلاد منهجية انعكاسية جديدة ترفض قانونية المجتمع، وتؤسّس لرؤية جديدة ومنهجية جديدة تعتمد على الفهم والتّأويل، أي على اكتناه الظواهر الاجتماعية بوصفها روحاً وثقافةً لا يستقيم معها الضّبط المنهجي الوضعي الذي يسعى لرصدها في صورة قو انين مستلهمة من قو انين الطّبيعة الجامدة.

2-3- غائية الفعل الاجتماعي:

يؤسّس ڤيبر رؤيته لهذه المنهجية على الطّبيعة الغائيّة والمعنويّة للفعل الاجتماعي، وهذه الطبيعة غالباً ما تكون خفيّة في السّلوك الإنساني، إذ هو شديد الرمزية، مثقل بالمعاني والغايات، وغالباً ما تكون هذه الطّبيعة كامنة في أعماق النفس الإنسانية وليس خارجها، فالمضمر في السلوك الإنساني يأخذ صورة معقّدة، ولذا ما يمكننا فعله لا يقوم على تقنين السّلوك الإنساني، بل في بذل الجهد في فهمه وتأويله. فعلى سبيل المثال: الإنسان الذي يتطوّع للحرب، هو ذاك الذي يريد الدفاع عن الوطن من حيث المظهر الخارجي أو القانوني. أما في الباطن فإنّ الغايات تختلف والدلالات تتنوّع في مسار هذه الاندفاع للحرب: فمن ذاهب إلى الحرب بغية الحصول على المال، ومن ساع إلى الشهرة، ومن مندفع بسبب نزعة عدوانية فيه الخ...

وهذا الأمر يختلف في عالم الذّرات والماهيات المادية والظواهر الطبيعية، إذ لا يمكن أن نحدّد غاية الحركة في الذرات والإلكترونات وانسياب أشعة الشّمس واسترسال نور القمر وحركة النموّ في النباتات. فالمعلماء يلاحظون ما يجري ويقرنون النّتائج بالأسباب، والأسباب بالمسبّبات، فالمغناطيس يجذب الحديد ولكن لا نعرف لماذا يفعل ذلك؟ ولا ندري لماذا لا يجذب الخشب؟ وكذلك الخشب يطفو على سطح الماء ولا ندري لماذا لا يطفو في الهواء؟ النار تحرق، ولكننا لا نعرف ماهية الإحراق، وما جوهر النار أو جوهر الإحراق؟ كما لا ندري ما جوهر الجذب المغناطيسي؟ وكلّ ما يستطيع العلماء فعله إزاء هذه الظواهر يتمثّل في العمل على الضبط القانونيّ لها، واستكشاف علاقاتها فيما بينها، وفيما بينها وما يحيط بها من ظواهر، ولا يمكن الوصول إلى جوهرها، كما يرى كانط، وكما يرى لاحقاً تلميذه النجيب ڤيبر.

¹⁻ جامباتيستا ڤيكو Giambattista Vico فيلسوف تاريخ ومنظّر قانوني إيطالي، ولد في نابولي ومات فيها، تعلّم بالكلية اليسوعية، وعلّم البلاغة بجامعة نابولي، درس اللغات القديمة والأدب والفلسفة وكذلك الطب والحقوق. واهتم بدراسة الحقوق الطبيعية وتوسيعها، كما أولى عناية فائقة لدراسة الحقوق الرومانية، فقرأ أمهات الكتب القديمة ونفائس المخطوطات المحفوظة في مكتبة دير «ايسكيا» في مدينة ڤاتولا Vatolla قرب سالرنو .Salerno.

²⁻ نقولا تيماشيف: نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ترجمة: محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثامنة 1983، ص261.

وباختصار، الدراسة العلمية للظواهر المادّية تقدّم لنا إجابات عن الكيفية التي تحدث فيها الأشياء؛ أي أنها تقدّم إجابة عن سؤال: كيف تحدث الأمور؟ وما أسبابها الملحوظة؟ وعلى خلاف ذلك فإنّ الدّراسات الاجتماعية تقدّم لنا إجابة عن سؤال: لماذا تحدث الأمور على هذا النّحو أو ذلك؟ وما الغاية من حدوثها؟ ومن المؤكّد أننا نتحفّظ كثيراً على ما يذهب إليه ماكس ڤيبر في هذا السّياق، وسنحلّل لاحقاً الانتقادات الكبيرة التي يمكن أن توجّه إلى أسلوبه وطريقته ومنهجه في البحث الاجتماعيّ، وحسبنا أن نشرح، ههنا، الطريقة المنهجيّة التي اعتمدها في التأسيس لمنهجه القائم على الفهم والاستبصار التأويليّ¹.

4- علم الاجتماع التأويلي (Interpretive Sociology):

يرى كثير من المتخصّصين في المجال السوسيولوجي أنّ ماكس ڤيبر قد ضمّن معظم أفكاره في كتابه: "الاقتصاد والمجتمع" وهذا لا يقلّل من أهمّية ما تضمنته أعماله الأخرى، ولا سيما كتابه "البروتستانتية وروح الرأسمالية" الذي يتضمّن المقوّمات الأساسية لعلم الاجتماع الدينيّ. وفي كلّ الأحوال، فإنّ كتاب "الاقتصاد والمجتمع" ((Economy and Society) هو أشبه ما يكون بموسوعة ڤيبرية تضمّنت مختلف أرائه وتصوّراته الاقتصادية والاجتماعية في آن معا، وتقع الترجمة العربية لهذا الكتاب في 862 صفحة، وهذا يدل على الطّابع الموسوعي لهذا الكتاب.

يعرّف قيبر علم الاجتماع في أوّل جملة من كتابه الاقتصاد والمجتمع بقوله: "نسمي علم الاجتماع... العلم الذي يأخذ على عاتقه تفهم النشاط الاجتماعي بالتأويل، بتأويله ثم بتفسير مساره ومفاعيله تفسيراً سببياً 4. وفي سياق آخر يقول: "إن ما ندعوه سوسيولوجيا هو علم مهمّته الفهم، عن طريق تأويل النشاط الاجتماعي" 5.

ومن الواضح أن المجتمع يتكون من أفراد متفاعلين يقومون بسلوكيات وأفعال في سياق اجتماعي، ويشكل هذا التّفاعل بين أفراد المجتمع الموضوع الأساسيّ لعلم الاجتماع. والإنسان الفاعل يتميّز بأنّه "إنسان كائن واع، يتصرف بوعي، تحركه مقاصد وأهداف، وذلك على عكس الأشياء التي يمكن إخضاعها للدراسة العلمية، وهذا يعني أن علم الاجتماع يجب أن يركز على فهم الفعل الإنساني والتفاعل القائم في المجتمع بين الأفراد"6.

¹⁻ look: Weber, Max. 1949. The Methodology of the Social Sciences. New York: Free Press.

²⁻ Weber, Max. 1922/1968. Economy and Society. Edited by Max Rheinstein. Translated by Edward Shils and Max Rheinstein. New York: Simon and Schuster.

³⁻ ماكس ڤيبر، الاقتصاد والمجتمع، ترجمة محمد التركي، مراجعة فضل الله العميري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2015.

⁴⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص29.

⁵⁻ فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، علم الاجتماع، ترجمة: أياس حسن، دمشق: دار الفرقد، 2010، ص47-48.

⁶⁻ جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، مرجع سابق.

وإذا كان المجتمع يتكوّن من أفراد بالضّرورة فإنّ هؤلاء الأفراد لا يوجدون إلّا في حالة الحركة والنّشاط والتّفاعل، والحركة تعني الفعل، والفعل يشكّل جوهر حياة الفرد ووجوده وجوهر الحياة الاجتماعية ومعناها، والفعل الاجتماعيّ، أيّ فعل، يجب أن يكون إنسانياً؛ أي يجب أن يرتبط بغاية، وأن يحمل معنى ودلالة، ويمكن للفعل أن يكون فردياً يدور حول ذاتيّة الفرد أو أن يكون اجتماعياً يدور في فلك الآخر. وعلى هذه الصورة يمكننا تصور المجتمع على صورة التفاعل الذري بين الذرات (الأفراد)، وكما يحدث في عالم الذرات تنطوي الذرة في ذاتها على فعل ذاتي يتمثل في حركة أجزائها في داخلها (الفوتونات والنترونات التي تدور في داخل الذرة)، كما تلتحم الذرة في أنساق من الذرّات المشابهة لتكوين الأجسام والأشياء. وعلى هذا النحو يميّز قيبر بين السّلوك الفردي عندما يكون الفعل فردياً غائياً خارج سياق العلاقة مع الآخر، والسّلوك الاجتماعي الذي يشمل حالة التّفاعل بين الفرد والأفراد الآخرين. وباختصار: المجتمع والجماعات نسيج ذري من تفاعلات الأفراد وسلوكاتهم وأفعالهم الغائية.

وترتسم نقطة البداية في سوسيولوجيا ڤيبر في تناوله للفعل الإنساني والاجتماعي بوصفه الموضوع المركزي والأساسي الذي ينطلق منه علم الاجتماع. ويتمثل الفعل الاجتماعي في سلوك الفرد وتفاعله الاجتماعي مع الآخرين بصورة تتميز بطابع الديمومة والاستمرار، والفعل الاجتماعي -كما يراه ڤيبر - قد يكون ظاهراً معلناً أو خفياً مضمراً، أو بالأحرى قد يكون صادراً عن قوة خارجة اجتماعية، أو طبيعية، أو ناجماً عن أرادة ذاتية حرّة.

وبعبارة أخرى يرى ڤيبر أنّ الفرد هو العنصر الأوّلي في النّسيج الاجتماعيّ، ولكي يعيش الفرد يجب عليه أن يكون دينامياً نشطاً، إذ لا يمكن للفرد أن يحيا إلّا من خلال النّشاط والفعل الاجتماعي، وهذا يعني أنّ الفعل أمر لازم بالضرورة عن الفرد وصفة جوهرية من صفاته، فالفرد لا يوجد إلّا في حالة الفعل ليضمن حياته ووجوده. والفعل الاجتماعيّ لا يتمّ إلّا في أطار جماعة؛ أي في صلة مع الآخرين، وأنّ الفعل يكون في نسق التّفاعل مع الآخرين، وهذا التفاعل الاجتماعيّ بين الجماعة أو في المجتمع يشكّل النّسيج الاجتماعيّ. ويترتّب على ما تقدم أنّ الأفراد يوجدون من خلال الأفعال التي يمارسونها في صيغة تفاعل اجتماعيّ بين الأفراد، وهذا التّفاعل يشكّل بالضرورة النّسيج الوجودي للمجتمع.

ويبدأ ڤيبر في نسج أفكاره السوسيولوجية من خلال تناوله للفعل الاجتماعي الذي يشكل منطلق الحياة الاجتماعية. ويرى أن الفعل الاجتماعي يتميزعن الفعل الطبيعي بطبيعته الغائية والمعنوية، وهنا يكمن بيت القصيد، فالفعل الاجتماعي فعل غائي يحمل معنى ودلالة، وهذا يعني أن دراسة الفعل الاجتماعي تعتمد على منهجية مختلفة تماماً عن تلك التي تُعتمد في رصد الفعل الطبيعي. فالأفعال الطبيعية من مثل: الرياح، والصواعق، والمدّ، والجزر، والبراكين وغيرها من الظواهر الطبيعية لا تجري وفق غايات محددة أو نيات مسبقة، فالريح لا تهب لغاية إغراق السفن، والقمر لا يضيء من أجل المسافرين، فهذه الظواهر تحكمها قوانين الطبيعية وهي مجردة من الغاية والمعنى، وهي لا تكتسب غايتها إلّا في مخيال الإنسان الذي يسقط عليها مشاعره ونواياه، كما كان يحدث لدى الأقوام البدائية فيما نسميه بالظاهرة الأنيمية (Animism)، إذ كان ينظر إلى الكائنات الطبيعية والحية على أنها كائنات حيّة مماثلة له في جوهره النفسي

والإرادي. فالإنسان القديم عندما أراد فهم الظواهر الطبيعية لم يستطع فهمها إلّا من خلال تصوراته الذاتية عن الإنسان نفسه؛ أي عما يشعر به ويراه، وعلى هذا النحو ربما يستقيم فهمنا للفعل الاجتماعي عند قيبر عندما نعتمد ما يجانس هذه "الأنيمية"، إذ يتوجب علينا أن نبحث عن المقاصد والمعاني والغايات والدلالات في سلوك الإنسان وفعله الاجتماعي كي نفهمه.

وبناءً على ما تقدم يمكن القول: "بإن علم الاجتماع -بحسب ماكس ڤيبر- هو دراسة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد داخل المجتمع، واستكشاف الطريقة التي يعطي فيها الناس فهماً ذاتياً للعالم، واستقصاء الكيفية التي يسلكونها في حياتهم الاجتماعية، ويهدف في النهاية إلى فهم الفعل الاجتماعي وتأويله وتفسيره في ضوء عوامل وجوده وديناميات حركته القيمية. وهذا كله يعني أن منهج علم الاجتماع الڤيبري يقوم على مبدأ فهم السلوك الاجتماعي وتأويله وأدراك معانيه واكتناه دلالته، وباختصار يمكن القول: بإن المنهج الڤيبري يؤكد على أهمية الفهم والتأويل ويركز على استحضار الذات المؤولة في الفعل الاجتماعي الذي لا يمكن فهمه إلّا في سياق تاريخي ثقافي مخصب بالدلالات والمعاني.

5- الفعل الاجتماعي موضوعاً للسّوسيولوجيا:

يشكّل الفعل الاجتماعي مقولة مركزية في سوسيولوجيا ڤيبر، فالفعل الاجتماعي يشكل النواة التكوينية المشكّلة للمجتمع والسلوك الإنساني برمته. والفعل الإنساني عند ڤيبر فعل غائي يتمثل في سلوك الفرد أو مجموعة من الأفراد الذين يسلكون ويتحركون في المجتمع وفق الغايات والنوايا والمقاصد. وهنا يكمن بيت القصيد عند ڤيبر، وذلك لأن فهم السلوك الاجتماعي يتمحور حول مقاصد الفعل الاجتماعي وغاياته ونواياه، (النوايا سابقة للفعل ومحركة له) والنوايا التي تحكم السلوك الإنساني تكون غالباً خفية غائرة في ونواياه، (النوايا سابقة للفعل ومحركة له) والنوايا التي تحكم السلوك الإنساني تكون غالباً خفية غائرة في العمق الإنساني ولا تكون ظاهرة دائماً في الفعل الاجتماعي؛ أي في نشاط الفرد أو سلوكه، وكذلك في أفعال الجماعات. ومن أجل فهم هذا السلوك وتحليله يجب على الباحث أن يعمل وفق منهجية مثالية تمكنه من إدراك الفعل الإنساني من مدخل الغايات والنوايا، وليس من مدخل القانونيات الوضعية التي تحمكم كما يرى الوضعيون؛ لأن المناهج الوضعية تقوم على إدراك ظاهر السلوك وليس باطنه؛ ولأن السلوك الإنساني يرى الوضعيون؛ لأن المناهج الوضعية تقوم على إدراك ظاهر السلوك وليس باطنه؛ ولأن السلوك الإنساني ومن المناه في هذا السياق ان نأخذ بعين الاعتبار أن الفعل الإنساني، كما يراه ڤيبر، يجب أن يرتبط بغاية إنسانية أو مقصد، وهذه الغائية هي التي تهب الفعل طابعه الإنساني، وكل فعل لا يبنى على مقصد أو غاية لا يكون فعلاً إنسانياً ومثال ذلك إغلاق الباب بالصديفة، أو الارتطام بالحائط لاي يقوم به الفرد بالصدفة ليس فعلاً إنسانياً ومثال ذلك إغلاق الباب بالصدفة، أو الارتطام بالحائط دون قصد، أو سقوط شيء من اليد عفوماً أو الاصطدام بسيّارة، هذه الأفعال جميعها ليست إنسانية؛

لأنها لا ترتبط بغاية واضحة. وباختصار فإنّ فيبر "يعدّ الفعل الإنساني، هو (فقط) ذلك السّلوك أو النّشاط، الّذي يمكن أن ننسب إليه قصد أو معنى ذاتى لتبرير ما قام به الفاعل من نشاط"1.

ويميّز ڤيبربين نمطين من الفعل الإنساني: الفعل الفرديّ والفعل الاجتماعيّ:

ويتمثّل الفعل الفرديّ في أوجه النّشاط الّذي يقوم به فرد واحد، ويشترط في هذا الفعل أن يمتلك في ذاته غايةً وهدفًا ومعنى وقصدًا؛ أي أن يتضمّن هدفاً. ويقصد بالفعل الفردي الفعل الذي يكون خارج سياقه الاجتماعي كأنْ يذهب الإنسان ليشرب من النّبع، أو يتناول طعامه بمفرده، وعندما يقوم بأيّ فعل لا يتحرّك ضمن علاقة اجتماعيّة.

وعلى خلاف ذلك يتمثّل الفعل الاجتماعيّ في السلوك التّفاعليّ بين الأفراد في المجتمع الذي يتمّ بين فاعلين أو أكثر في إطار الحياة الاجتماعيّة داخل مجتمع ما وفق نسق من المقاصد والدّلالات والمعاني.

وتتّضح نظرة ڤيبر إلى الفعل الاجتماعي بالمقارنة مع رؤية دوركهايم، ففي الوقت الذي ينظر فيه دوركهايم إلى الظّواهر الاجتماعيّة أياًّ كانت (سلوك اجتماعيّ، أو فعل اجتماعيّ، أو ممارسة اجتماعيّة)، على أنّها موضوعات وأشياء، يتناولها ماكس ڤيبرعلى أنّها ظواهر ذاتيّة لا يمكنها أن تكون أشياء أو موضوعات جامدة. فالسّلوك الاجتماعيّ عند ڤيبر هو السّلوك التّفاعليّ الذي يتحقّق بين الأفراد على أساس غائيّ وانسانيّ ². وعلى هذا النّحو ينظر ماكس ڤيبر إلى الظّاهرة الاجتماعيّة بوصفها تكوبناً سيكولوجيّاً زئبقياً شديد التّعقيد، تحكمه تردّدات النّفس الباطنيّة التي يصعب إدراكها منطقيّاً، بل يمكن فهمها عاطفيّاً وعقليّاً. وعلى هذا الأساس، عكس ڤيبر منهجية علم الاجتماع فجعلها تتحرّك من الأفعال الموضوعيّة إلى الأفعال الإنسانيّة الذّاتيّة، وقد يصحّ القول أنّه: نقل السّوسيولوجيا من الموضوع إلى الذّات، ومن الشّيء إلى الإنسان ليؤسّس بذلك سوسيولوجيا تأويليّة تقوم على أساس الفهم والتّأويل للفعل الإنسانيّ وكان له قصب السّبق في تأسيس علم الاجتماع التّأويلي أو سوسيولوجيا الفهم (la sociologie compréhensive. فالأحداث الاجتماعيّة تتّصف بأنّها وقائع قابلة للإدراك، وهذا يعني أننا نستطيع أن ندرك الظّواهر الاجتماعيّة بطريقة مختلفة عن الظّواهر الطبيعيّة، فعلى سبيل المثال: يمكننا أن ندرك بسهولة نشوب حرب كالحرب الرّوسيّة الأوكرانيّة أو اندلاع ثورة مثل ثورات الرّبيع العربي، أو سقوط حكومة من الحكومات، أو هبوط سعر الدولار، أو أسباب هجرة العقول إلى الخارج، وهذه المعرفة تختلف كليّاً عن معرفة الظّواهر الطبيعيّة، من مثل: الفيضانات والبراكين وشروق الشّمس وتغيّر الفصول؛ لأنّنا في حالة الظّواهر الطبيعيّة نعتمد الملاحظة الخارجيّة أي على ما يبدو لنا ولا يمكننا إدراكها من الدّاخل وتفسيرها بالطّريقة السّيكولوجيّة للظّواهر الاجتماعيّة.

-

¹⁻ عبد الحكيم شباط، ماكس ڤيبر والفعل الاجتماعي، دار ناشري، 03 تشرين2/نوفمبر 2013. http://bitly.ws/zjnd

²⁻ جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، مرجع سابق.

³⁻ المرجع نفسه.

وتأسيساً على هذه الرؤية التأويلية للعلم يعرّف فيبر علم الاجتماع بأنّه "العلم الاجتماع الذي يباشر الأفعال الاجتماعية بالفهم والتأويل". ومن هذا المنطلق، يرفض الحتمية الاجتماعية والاقتصادية التي نراها في سوسيولوجيا فيبر، وماركس، ودوركهايم، وسنسر، وابن خلدون، وغيرهم من المفكّرين أصحاب النّظرة الوضعية إلى علم الاجتماع. وعلى خلاف هؤلاء جميعاً يرى فيبر: أنّه لا يمكن فهم السّلوك الإنساني ضمن نسيج من الضّغوط الاجتماعية الخارجية فحسب، ومع ذلك يقرّ بأن هذه الإكراهات والضّغوط تفسّر نسبياً بعض الظّواهر الاجتماعية. فالمجتمع، كما يراه، نسيج من الأفعال والتّفاعلات الإنسانية القائمة على أنساق من القيم والدّو افع الذّاتية والإرادات والمعاني والغايات، وهي العوامل التي تحرّك البشروتدفعهم نحو مصائرهم السّلوكية. وعلى هذا الأساس يعرف السّوسيولوجيا بأنّها "علم فهم السلوك الإنساني عن طريق التّأويل". وهكذا فإن المجتمع لا يعدو أن يكون أكثر من عاياته، وإحداث شبكات سلوكية قائمة على المعاني والدّلالات. فالإنسان الفرد والإنسان المجتمعيّ كائن غاياته، وإحداث شبكات سلوكيّة قائمة على المعاني والدّلالات. فالإنسان الفرد والإنسان المجتمعيّ كائن يسلك على نحو غائيّ إراديّ نفعيّ. وكل سلوك يتحدّد ضمن مقاصد الفرد ونو اياه، وذلك على خلاف ما نشاهده في عالم الظّواهر الطّبيعيّة التي يمكن إخضاعها للدّراسة العلميّة القائمة على الملاحظة والتّجرية.

6- النَّمط المثاليُّ منهجا للفهم والتأويل:

يشكّل مفهوم النّمط المثاليّ (Ideal Types) المفهوم المركزيّ المنهجيّ الأكثر أهميّة في سوسيولوجيا ڤيبر وفي عموم نظريّاته ومقولاته السياسيّة والاقتصاديّة. ويشكّل أيضا الأداة المنهجيّة الرئيسة التي يعتمدها في تحليل الظّواهر ودراسة السّلوك الإنسانيّ في مختلف مستوياته الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والإداريّة.

لما كان فيبر رافضا المناهج السوسيولوجية والتقنيّات التي يعتمدها علماء الاجتماع المعاصرين له والسّابقين عليه في دراسة الظواهر الاجتماعية استنباطاً لقوانين المجتمع، واستكشافاً للسببية الحاكمة لها، من منطلق أن هذه المناهج لا تستطيع الخوض في عمق الظاهرة واستكشاف ماهيتها ومعانيها الداخلية (أقترح حذفها كي لا يتوه المعنى)، كان عليه أن يبدع منهجه الخاصّ في دراسة السّلوك الإنسانيّ، وأن يطوّع هذا المنهج لنظريّته الخاصة القائمة على فهم السّلوك الإنسانيّ واكتناه معانيه. ومن صلب هذه الحاجة إلى منهج جديد يتوافق مع رؤيته، استطاع أن يبدع منهجه الخاصّ الذي أطلق عليه النّمط المثاليّ، أو الأنموذج المثاليّ (Ideal type) وهو يمثّل منهجيّة متفرّدة يراها الأفضل في مقاربة الظّواهر الاجتماعيّة وتحليل السّلوك الاجتماعيّ.

وقبل أن نبداً بتحليل الأنموذج المثاليّ عند ڤيبر، يجب أن ننوّه إلى أنّ الأنموذج المثاليّ الڤيبري يقوم على أساس سيكولوجيّ معرفيّ رسّخه علماء النّفس وعلماء نظريّة المعرفة الذين يؤكّدون أنّ عمليّة الإدراك والفهم تقوم على نماذج إدراكيّة مرجعيّة لدى الشّعوب والجماعات والأفراد. وتأسيساً على المعطيات

السيكولوجيّة في علم النّفس المعرفيّ وعلم الاجتماع المعرفيّ وجد ڤيبر ضرورة استخدام النّماذج الإدراكيّة في عمليّة فهم الظّواهر الاجتماعيّة وإدراكها؛ لأنّ الإنسان لا يدرك الواقع بشكل مباشر وآليّ، بل من خلال النّماذج الإدراكيّة الكامنة في الظّواهر الاجتماعيّة وقوانينها، وكذلك في النّصوص التي يقرؤها أو يكتبها، لهذا تتمثّل مهمّة الباحث في اكتشاف سمات النّموذج المهيمن في مجتمع أو حضارة ما"1.

وتأخذ النّماذج الإدراكيّة صورة نماذج معرفية: "لكل أنموذج بعده المعرفيّ، وخلف كل أنموذج معايير داخليّة، تتكوّن من معتقدات وفروض ومسلّمات، وإجابات عن أسئلة كليّة ونهائيّة، تشكّل جذوره الكامنة وأساسه العميق، وتزوّده ببعده الغائيّ"². ومن "أجل تحليل سلوك الإنسان وتفسيره، يجب بداية معرفة الأنموذج الإدراكيّ الذي يحدّد إدراكه لواقعه، ثمّ بعد ذلك يتمّ تجريده لتوظيفه في تفسير سلوكه، وهذا ما يعرف بالنّموذج التحليلي. فالباحث يستخدم النّموذج كأداة تحليليّة، من خلال رصد الحقائق والمعلومات، ثمّ يقوم بعد ذلك بتفكيكها والرّبط فيما بينها، ثمّ تجريدها وتركيها بغية وضع المتشابه منها في إطار واحد"⁸.

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس، يبني ڤيبر نماذجه وأنماطه المثاليّة ويعمل في هذا السّياق على تشكيل النّمط المثاليّ على تأسيس منظومة من المفاهيم الواضحة التي تدلّ على محدّدات ظاهرة اجتماعيّة محدّدة. ويمكن صوغ هذه المفاهيم المترابطة المتكاملة في إطار منهجيّ يسمح بدراسة الظّواهر منهجيّاً. ويمكن في الوقت نفسه من فهمها واكتناه معانها وتفسيرها. ويبدو لنا أن ڤيبر قد استلهم النّص المأثور للشّاعر الألمانيّ غوتة الذي يقول: "إن الإنسانَ لم يولد ليحلّ مشاكل هذا العالم، ولكن ليحدّد مكمنها. وبالتّالي يتمكّن من ضبطها في مفاهيم واضحة" 4. وعلى هذا المنهج القائم على ضبط المفاهيم وترسيمها في ايقاعات الوضوح، يرسم ڤيبر منهجه المثالي ضبطاً في المفاهيم وتكاملاً في الإيقاع ليمكّنه من فهم الحقيقة وإدراك المعنى في الأفعال الاجتماعيّة.

ورغم أهميّة التركيز على الوضوح في الأنماط المثاليّة عند ڤيبر، فإن مفهوم النّمط المثاليّ يحمل في طيّاته شيئاً من الغموض يتردّد في التعريفات التي يقدّمها ڤيبر أو تلامذته. لأنّها تعاني كثيراً من الارتباك والغموض والاهتزاز. فالنّموذج المثاليّ ليس مثاليّاً في جوهره، بمعنى المثاليّة الفاضلة أو التّفضيليّة كمثاليّة أفلاطون في جمهوريّته الفاضلة، فالمثاليّة الڤيبرية ليست مثاليّة تفضيليّة بمعنى المثاليّة التي تسمو على الواقع تفضيلاً، وترقى عليه قيمة أخلاقيّة، بل هي هذه المثاليّة التي تتمثّل في نمط معرفيّ مختلف، يستمدّ من الوقائع ويتميّز بالشموليّة المعنويّة والدّلاليّة. وعلى هذا الأساس، يمكن للنّمط المثاليّ أن يكون شديد السّلبيّة (بالمعنى الأخلاقيّ المتفوق) مرتهنا بالموضوع الذي يباشره، فعندما نصنع نموذجاً مثاليّاً لسلوك الشّرّ فمن المؤكّد أنّ

(33)

¹⁻ عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، دار الهلال، القاهرة، 2001، ص 20.

²⁻ عبد الوهاب المسيري: دفاع عن الإنسان (دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة)، ص 298. نقلا عن: ليندة صياد، النموذج باعتباره منهجا في التحليل عند عبد الوهاب المسيري، مجلة الكلمة، العدد 64 أغسطس 2012.

http://www.alkalimah.net/Articles/Read/4684

³⁻ عبد الوهاب المسيري: دفاع عن الإنسان، المرجع السابق.

⁴⁻ عبد الحكيم شباط، ماكس ڤيبر والفعل الاجتماعي، مرجع سابق.

هذه المثاليّة ستكون سلبيّة بالدّلالة الأخلاقيّة. وباختصار يكون النّموذج المثاليّ مثاليّا بقدر ما يعبّر عن الظّاهرة التي يباشرها أفضل تعبير وبالدّرجة التي يكون فيها قادرا على أن يكون وسيلة منهجيّة أفضل في المساعدة على فهم الظّاهرة التي يدرسها وتأويلها.

فالمثاليّة هنا لا تعني الأفضليّة، بل تعني أنّ الصّورة النّهنيّة للنّموذج نادرة في العالم الحقيقيّ. وقد ذكر قيبر أنّ النّموذج المثاليّ لا يحتاج أن يكون إيجابيّاً أو صحيحاً، جميلاً أو قبيحاً، خيراً أو شرّبراً، بل قد يكون سلبياً مجافياً للقيمة الأخلاقية، وبعبارة أخرى لا تعني كلمة المثاليّة أمراً يخلو من العيوب والسّلبيّات، بل هي تعبير عن وضعيّة و اقعية نموذجيّة تلتئم فيها صفات وضعيّة محدّدة تعبر عن و اقع تاريخيّ محدّد لظاهرة اجتماعيّة. والأنموذج المثاليّ لا يعدو أن يكون أكثر من أداة منهجيّة تعتمد في تحديد نظام فكريّ، أو ظاهرة اجتماعيّة محدّدة في سياق تاريخيّ محدّد، وهو أداة توفّر للباحثين منهجيّة فعالة في استقراء الظّواهر الاجتماعيّة وفهمها1.

وهذا يعني أنّ النّماذج المثاليّة يجب أن تكون أداة يقاس بها المدلول أو الظّاهرة المدروسة، ويتطلّب ذلك أنّ يكون لها معنى في ذاتها، وأن تساعد على استكشاف المعنى في واقع الظاهرة المدروسة؛ أي في العالم الحقيقيّ.

يرى فيبر أنّ هذه النّماذج قد تكون قادرة على وصف الظّواهر الطّبيعيّة أيضاً بالإضافة إلى الظّواهر الحيويّة والاجتماعيّة. ومن أجل ذلك وضع فيبر نماذج لمختلف الظّواهر التي قام بدراستها من مثل: البيروقراطيّة والفعل الاجتماعيّ والسّلطة. وقد أوضح في سياقات متعدّدة أنّ النّماذج المثاليّة يجب أن تكون متغيّرة أيضاً ويجب أن يجري العمل على تطويرها بصورة مستمرّة في ضوء الدّراسات التي تتمّ بين الحين والآخر؛ لأن النّماذج المثاليّة ليست معطيات نهائيّة جامدة فحسب، بل هي نماذج وأدوات منهجيّة حيّة لا تخضع للتّغيير والتّعديل. ويجب أن تخضع للتّغيير والتّعديل بصورة مستمرّة لتكون أكثر قدرة على التّكيّف المنهجيّ في دراسة الظّواهر التي تباشرها بالدّراسة والتّحليل، وهذا الأمر ينسجم إلى حدّ كبير مع رؤية فيبر أنّه في العلوم الاجتماعيّة لا توجد مفاهيم سرمديّة 2.

وفي عود على بدء، فإنّ النّموذج المثاليّ يأخذ صورة تشكيلة ذهنيّة إبيستيمولوجيّة من المفاهيم المستوحاة من الو اقع تتميّز بدرجة عالية من الوضوح والدّقة والضّبط والثّبات التي يمكن اعتمادها منهجيّاً في فهم ظاهرة سلوكيّة أو اجتماعيّة أو فعل اجتماعيّ مهما يكن نوعه. وهو المنهج الذي يستعيض فيه الباحث عن المناهج العلميّة المطبقة في الطبيعيّة؛ لأنّ فهم الظاهرة الثّقافيّة الاجتماعيّة يختلف عن فهم المادّة الجامدة التي يمكن ضبطها كميّاً ورقميّاً بأدوات علميّة تجريبيّة، كما يجري في دراسة الظّواهر الفيزيائيّة والكيميائيّة.

2- George Ritzer, Classical Sociological Theory, Eighth Edition, New York: Published by McGraw-Hill, 2010. Pp. 119-120.

¹⁻ Rolf E. Rogers, Max Weber's ideal type theory, Philosophical Library, Social Science, 1969. p90.

فالفعل الإنسانيّ الاجتماعيّ يشكّل نسقاً من التّفاعلات النّفسيّة العاطفيّة والأخلاقيّة التي لا يمكن ضبطها بالمقاييس العلمية. وهي على خلاف ذلك مهيّأة للفهم والتأويل، ومن ثمّ التّفسير وفقاً لمنطق الكيفيّات، ويمكن التّنبؤ بها في المستقبل. وهذا هو الأمر الذي يؤدّيه النّمط المثاليّ بوصفه أداة للفهم والتّعليل والتّأويل¹.

ويمكن تعريف النّمط المثاليّ أيضاً بأنّه "الصّورة التي تتشكّل في النّهن حول موضوع محدّد وتقاس عليها الأشياء الأخرى؛ للحكم على مدى انطباقها عليها أو ابتعادها عنها بقصد معرفتها. وقد تعكس الصّورة حقيقة مادّية ملموسة في الواقع أو فكرة عقليّة مستخلصة من تجربة يعيشها الفاعل، لكنهّا ما إن تصبح معياراً للحكم على الأشياء الأخرى حتى تصبح نموذجاً يوجّه الفاعل بصرف النّظر عن منطقيّته أو تطابقه مع حقيقة الشّيء خارج الذّهن" 2. وهذا يعني أنّ النّمط المثاليّ هو أداة منهجيّة تتمثّل في تنظيم متكامل لمجموعة المفاهيم المعياريّة المعتمدة في تناول الظّواهر الاجتماعيّة ودراستها ومقارنتها والمستخدمة لفهم الظّواهر وتأويلها والتّنبؤ بمصيرها.

وباختصار يمكن تعريف النّموذج المثاليّ مرّة أخرى بالقول إنّه نسق مركّب من المفاهيم يبنيه عالم الاجتماع لدراسة الظّواهر الاجتماعيّة والإحاطة بمعالمها وفهمها وإدراك معانها. ويضرب لنا جورج رايتز (George Ritzer) على ذلك مثالاً يتعلّق بالمعركة العسكريّة النّموذجية المثاليّة. فالحرب تشتمل على مكوّنات أساسيّة من مثل الجنود والجيوش المتحاربة والقادة المخضرمون والاستراتيجيّات المتعارضة والأرض المتنازع عليها والأسلحة المستخدمة والتكتيكات العسكريّة وقوى الإمداد والدّعم ومراكز القيادة وخواص القيادة. وهذا يعني وجود مجموعة من المفاهيم الواصفة للحرب، التي تشكّل النّموذج المثاليّ أو النّمط المثاليّ. ومثل هذا النّموذج يجب أن يعتمد كأداة منهجيّة تساعد الباحث في دراسة أيّ حرب من الحروب الممكنة، وهو مع ذلك نموذج لم يولد خارج السّياق الاجتماعيّ في فضاء سرمديّ، بل تمّ نحته واستيحاؤه من تاريخ الحروب والمعارك. فعندما ندرس حرباً أو معركة حقيقيّة في الو اقع نقوم بتطبيق هذا النّموذج، وننظر من خلاله إلى ما يحدث في الحرب على الأرض. وقد لا تكون المفاهيم المستخدمة في النّموذج جميعها مطابقة لما يجري في الو اقع.

وفي ضوء المقارنة بين النّموذج النّهنيّ المكوّن من المفاهيم الدّقيقة، يمكننا أن نفهم طبيعة الحرب التي ندرسها ونقرّر سماتها وصفاتها ومآلاتها ويمكن أن نعلّل الأسباب التي جعلت طرفاً من الأطراف يهزم في الحرب والطّرف الأخر ينتصر. ومن الواضح أن "النّموذج المثاليّ" يستنتج من معطيات الواقع الحقيقيّ للتّاريخ الاجتماعيّ، وهذا يعني أنّه يجب على الباحثين أن يغوصوا في الواقع التاريخي لاستلهام النّماذج المثاليّة

2- فكروني زاوي، النهذجة في العلوم الاجتماعية، من المفهوم إلى المؤشرات، مجلة التدوين، العدد 01 السداسي الأول 2018. ص24-29.

¹⁻ Max weber, The Methodology of the Social Sciences, Edward Shils and Henry Finch (eds.), (New York, The Free Press 1949), p.90.

وتشكيلها¹. ويبين ڤيبر أنّ النّماذج المثاليّة ليست مرايا عاكسة للواقع الحقيقيّ رغم أنّها مستمدّة منه، ولا يمكنها أن تعكس العالم الو اقعيّ بدقة مرآتيه، وهي لا تتعدّى أن تكون صورة قريبة منه لا مطابقة لسماته وخصائصه².

ومن هذا المنطلق، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار، أنّ النّماذج المثاليّة أدوات منهجيّة تساعد الباحث في استكناه القضايا الميدانيّة التي يدرّسها. و أفضل تعريف للنّموذج المثاليّ يتمثّل في مقولة لاخمان (Lachman) الذي يصفه بأنه "عصا للقياس"3. وقد حدّد ڤيبروظيفته قائلاً: "إنّ وظيفته هي المقارنة مع الو اقع الميدانيّ من أجل تحديد انحر افاته أو تماثله لوصفها بأكثر المفاهيم وضوحاً وسهولة للفهم وتوضيحهما وفهمها تعليليّاً"4.

وهذا الأمر يؤكّده أنتوني غيدنز (Giddens) إذ يرى أنّ الأنماط المثاليّة تشكّل "نماذج مفهوميّة تحليليّة يمكن استخدامها لفهم العالم. وقلّما توجد هذه النّماذج في العالم الواقعيّ، وربّما لا توجد على الإطلاق. وفي أغلب الحالات تتّضح جوانب أو ملامح قليلة منها في الواقع. وقد تكون هذه النّماذج الافتراضيّة مفيدة جدّاً، عندما نحاول فهم الأوضاع الفعليّة في العالم بمقارنها بأحد هذه الأنماط المثاليّة. وهذا ما جعلها تكون بمثابة نقطة مرجعيّة ثابتة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ النّمط المثاليّ لم يكن بالنّسبة إلى ڤيبر قد وصل حدود الكمال أو حقّق الهدف المنشود. وما كان يعنيه ڤيبر أنّ النّموذج يمثّل صورة صافية لظاهرة مّا، وقد استخدم ڤيبر هذه النّماذج المثاليّة في تحليله لأشكال البيروقراطية والسّوق"5.

ويمكن في النّهاية تعريف النّموذج المثاليّ بصورة بانوراميّة بأنّه: "نموذج عقليّ ومنطقيّ ومثاليّ صالح لوصل الوقائع الواقعيّة المعطاة، بالتّركيز على مكوّناتها وسماتها وعناصرها، وإبراز خصائصها المشتركة والمميّزة والمترابطة فيما بينها، كما يجسّد المثال الواقع المرصود، ويختزله في نموذج فكريّ واضح ومتناسق ومنسجم. ومن ثمّ، فهدف الفهم هو البحث عن معنى العناصر المكوّنة للواقع المجتمعيّ، واستكشاف دلالاته الرّمزيّة بتأويلها وإدراكها إدراكاً مباشراً. ويعني هذا أنّ الفهم يدرك الظّواهر المجتمعيّة إدراكاً سليماً، ويحسّ بها إحساساً مباشراً ويدركها دون معالجات تجريبيّة أو تفسيريّة أو إحصائيّة ودون أي استدلال أو استنتاج مباشر. وهي تظهر للعقل ظهوراً بديهياً، كما لو كانت يقيناً لا يضيف إليه الاستدلال شيئا"6.

3- Lachman, L. M., The Legacy of Max Weber. Berkeley, Calif: Glendessary Press, 1971. P 26.

¹⁻ George Ritzer, op. Cit. Pp. 119-120.

²⁻ Ibid.

⁴⁻ Max weber, The Methodology of the Social Sciences. op. Cit., P.43.

⁵⁻ نقلاً عن جميل حمداوي: أنتوني غيدنز: علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة 1، 2005. ص71.

⁶⁻ نقلاً عن جميل حمداوي: عبد الله إبراهيم، الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2010. ص98-99.

وفي هذا السّياق، يحدد ڤيبر كيفيّة تشكيل النّماذج المثاليّة وتعيين مصادرها، فهي تستلهم وتستنتج من العالم الحقيقيّ للتّاريخ الاجتماعيّ وتوجّه الباحثين إلى استلهام الواقع التّاريخيّ الذي يشكّل الخزّان الطّبيعيّ الخام للنّماذج المثاليّة 1.

وأخيرا، يمكننا تعريف النّموذج المثاليّ بأنّه تشكيل ذهنيّ أو بناء عقليّ، يتضمّن نسقاً من المفاهيم الواضحة المجرّدة على نحو لا يماثله شيء في الواقع الميدانيّ. ويشكّل هذا النّموذج أداةً منهجيّةً تساعد الباحث في دراسة الظّواهر الاجتماعيّة الميدانيّة وفهمها وتفسيرها وتأويلها، ويمكن استخدامه للمقارنة بين الظّواهر المتماثلة في موضوعها، وعلى هذا النّحو يمكن القول: إنّ النّموذج المثاليّ تشكيل ذهنيّ نقيّ صِيغَ تجريدياً بعيداً عن كلّ أشكال التّحيّزات الأيديولوجيّة، وتحقيقاً لأعلى درجة من الموضوعيّة.

7- أمثولات النّمط المثاليّ:

يرى أغلب المهتمين بالمنظور السوسيولوجيّ عند ڤيبر أنّ مسحة من الغموض تلفّ مفهوم النّموذج المثاليّ. فهو يتميّز بصعوبته وتعقيداته التي يعسُر على التّعريفات المجرّدة أن تلمّ بها. وبعبارة أخرى يعاني مفهوم النّموذج المثاليّ من الغموض الذي ينفلت من قبضة التّعريفات المجردة. ومن أجل استكشافها موعرفتها بشكل جيّد، قد يكون من الأفضل لنا، أن نستعرض بعضاً من النّماذج التي وظفها ڤيبر في دراسته للظّواهر الاجتماعيّة. وقد سبق لنا أن قدّمنا في فقرة الفعل الاجتماعيّ النّموذج المثاليّ للفعل الاجتماعيّ الذي تميّز بالأنماط الأربعة (العقلانيّ والقيمي والتقليدي والعاطفي) المشار إليها آنفاً، وقد شكل هذا التصنيف للفعل الاجتماعي منطلقاً إلى نمذجة مختلف الظّواهر الاجتماعيّة القائمة في المجتمع، ولاسيّما أنماط السّلطة، والنّمط البيروقراطيّ، وغيرها من الأنماط المثاليّة الخاصّة بكلّ ظاهرة من الظّواهر المجتمعيّة، وسنعمل في العنصر التّالي على استجلاء ثلاثة أنماط مثاليّة أساسيّة رئيسة في سوسيولوجيا ڤيبر، وهي: النّموذج المثاليّ للمعللة. والنّموذج المثاليّ للسّلطة.

7-1- النَّموذج المثاليّ للفعل الاجتماعيّ:

يأخذ الفعل الاجتماعيّ مكانه في الأعماق السّحيقة لسوسيولوجيا ڤيبر ويشكّل موضوعها الأساسيّ، وهو يمثّل جوهر النّظريّة الاجتماعيّة عند ڤيبر، ومصدر كلّ الظواهر الاجتماعيّة الأخرى في مجال الدّين والسّياسة والحقوق والأخلاق والسّيكولوجيا البشريّة. وتأسيساً على هذه المركزية الخلاّقة للفعل الاجتماعيّ، كان على ڤيبر أن يحدّد اتّجاهاته ويرسم تضاريسه وأن يضع له الصّيغة النّمطيّة التي تناسبه. ومن صلب هذه الحاجة الإبيستيمولوجيّة يقدّم ڤيبر أربعة أنماط مثاليّة للفعل الاجتماعيّ.

¹⁻ George Ritzer, op. Cit. Pp. 119-120.

²⁻ ماكس ڤيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هلال، مراجعة وتقديم وتعليق محمد الجوهري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، العدد 1675، ص 1، 2011. ص 53.

7-1-1 الفعل العقلانيّ الغائيّ:

وهو الفعل الذي يقوم على المناظرة العقليّة والدّراسة الموضوعيّة للبواعث والأسباب والغايات. ويسعى هذا النّمط السّلوكيّ إلى تحقيق غايات معلومة وفي العقل محدّدة ومرسومة. ويمكن وصفه بأنّه كلّ فعل اجتماعيّ يقوم به الفاعل وفقاً لمخطّط ذهنيّ يحدّد فيه الجوانب المطلوبة والخطوات الواجب اتّخاذها لبلوغ الهدف المرسوم بصورة عقلانيّة وموضوعيّة. تقوم هذه الجوانب على نسق الترابط بين العلّة والمعلول وبين الأسباب والنتائج. فعلى سبيل المثال إذا أراد الطّالب أن ينجح في المدرسة ويتفوّق، فعليه أن يبذل الجهد ويكرّس الوقت في الدّراسة وأن يسهر اللّيالي وأن يثق بنفسه وأن يكون صاحب إرادة عالية وأن ينصت إلى معلّميه وألّا يضيع وقته في اللّهو والتّسلية. وهذا يعني أنّه يجب عليه أن يحسب أهميّة كلّ عنصر من عناصر النّجاح وأن يتّخذ قراراً لا رجعة فيه بتحقيق النّجاح والتّفوق في المدرسة.

وباختصار يمكن القول إنّ الفعل العقلانيّ هو الذي يتميّز بالتعقّل والمنطق والعقلانيّة ويهتدي بالتّبصّر والاستبصار والبصيرة ويعتمد الإدراك الثّاقب للأمور والقضايا والمشكلات ويوجّه نحو تحقيق هدف محدّد يرغب الفاعل بتحقيقيه. ويكون قادراً على توفير الشروط المناسبة لتحقيقه، ويشعر أنّه يمتلك القدرة على تحقيق هذا الهدف. ومثال ذلك: "المهندس الذي يصمّم بناءً معيّناً أو الشّخص المضارب في سوق الأوراق الماليّة الذي يهدف إلى تحقيق مكسب ماليّ، أو القائد الحربيّ الذي يربد أن يحقّق نصراً مّا، وأفعال هؤلاء جميعاً أمثلة تدلّ على نمط الأفعال العقلانيّة التي ترتبط بتحقيق هدف معيّن".

7-1-2 الفعل العقلانيّ القيميّ:

وهو فعل يقوم على نسق من القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية، مثل قيم الإيثار والتضحية والمحبّة والإحساس بالجمال والإيمان بالله 2. ويمكن القول إنّ الفعل العقلانيّ القيميّ يتمثّل في أي فعل إنسانيّ يقوم به فاعل اجتماعيّ. ويشترط أن يكون عقلانياً. ومثال ذلك عندما يضحيّ الجنديّ في أرض المعركة، وهو يدرك أنّ تضحيته تتمّ استجابة لقيم حبّ الوطن والدّفاع عنه، وربّان السّفينة الذي يضحيّ بنفسه من أجل إنقاذ السّفينة والسّباح الذي يضحيّ بنفسه لينقذ غريقاً، أو الطّبيب الذي يغامر بنفسه ويخوض في أجواء الأوبئة القاتلة لحماية مرضاه ومساعدتهم، الشّخص الذي يقوم بجمع التّبرّعات لصالح الفقراء والمساكين. يشمل هذا الفعل أي نشاط أو سلوك يقوم على أسس قيميّة وأخلاقيّة أياً كان مستواه.

7-1-3 الفعل العاطفيّ الانفعاليّ:

هو سلوك إنساني تحرّكه العواطف والجوارح والميول العاطفيّة والانفعاليّة، وتغيب فيه المبرّرات العقليّة، ومثال ذلك قضايا الحبّ والعشق والغرام وما ينجم عن هذه العاطفة الجيّاشة من حبّ وتضحية ووفاء وعرفان، وكذلك عاطفة الأمومة التي ترتبط بأروع أمثلة التضحية التي تبذلها الأم لأبنائها وأطفالها. ويتضح أنّ السّلوك العاطفيّ لا يخضع للعقلانيّة ولا يسعى إلى تحقيق هدف خارجيّ، بل هو في فعل عاطفيّ

¹⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية، القاهرة: دار الهاني للطباعة والنشر، 2006. ص120.

²⁻ ماكس ڤيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هلال، مرجع سابق، ص53.

انفعاليّ وجدانيّ، تحرّكه المشاعر الدّاخليّة والأحاسيس الإنسانيّة العميقة. وهذا ما يوضّحه المثل الشّعبيّ الذي يقول "إنّ الحبّ أعمى " وهذا يرمز إلى السّلوك اللاّعقلانيّ الذي يقوم بها المتيّمون بالحبّ.

ويمكن القول باختصار إنّ الفعل العاطفيّ ينبع من العمق الوجدانيّ للفرد ولا يأبه للعقل والعقلانيّة على الوجه الأعمّ.

7-1-4 الفعل التّقليديّ:

وهو أكثر أنماط الفعل هيمنةً وحضوراً وسطوةً في السّلوك البشريّ. والفعل التّقليديّ يوجّه بقوة الأعراف والتّقاليد والقيم الاجتماعيّة السّائدة، وعلى هذا النّحو تمارس الثّقافة السّائدة في مجتمع ما تأثيراً ضاغطاً في أفرادها يتمثّل في الأعراف والتّقاليد الاجتماعيّة التي تسود وتهيمين في المجتمع. ويكون السّلوك الإنسانيّ في ظلّ هذه القوّة الثّقافيّة التّقليديّة قائماً على الإذعان والخضوع والامتثال، مع أنّ كثيراً من أوجه هذه القيم التّقليديّة تكون متنافية متعارضة مع المنطق والأخلاق، أو المنظومة القيميّة عند الفرد الممتثّل لها بقوّة العادة والعرف والتّقليد. والفعل التّقليديّ، أو الموجّه بالتّقاليد ينتشر في المجتمعات العربيّة بشكل واسع، فعلى سبيل المثال، تستخدم المرأة العربيّة في بعض المناطق التّقليديّة الحنّاء لرسم الزّخارف والأوشمة على الكفّين في المناسبات السّعيدة كيوم الزّواج¹، وتقوم المرأة الغربيّة اليوم باستخدام الأوشام الإلكترونية (التاتو) وهو نمط سلوكيّ أصبح مألوفاً في بعض الثقافات التّقليديّة الغربيّة. ومثل هذه المظاهر متواترة في تقاليد الزّواج والولادة والأعياد.

وتتشكّل معايير السّلوك التّقليديّ وقيمه عبر عمليّات التّنشئة الاجتماعيّة التي تبدأ مع مرحلة الطّفولة المبكّرة، إذ يتشكّل الفرد على قيم المجتمع ومعاييره وأخلاقه ويتشبّع بثقافته، فيتشكّل على صورة نموذج ثقافيّ للمجتمع الذي يعيش فيه وبتمرّس بأخلاقيّاته وقيمه ومعاييره.

7-1-5 الفعل الاجتماعيّ الموجّه بعدّة بواعث:

رغم وضوح الحدود الفاصلة بين الأنماط الأربعة للفعل، فإنّ هذه الحدود قد تتداخل أطيافها في بعض الأنماط السلوكيّة الواقعيّة. وفي هذا السّياق، يمكننا أن نلاحظ تداخل العقلي والعاطفي في السّلوك الإنسانيّ. وقد نرى هذا التّداخل ما بين الفعل التقليديّ والفعل العقلانيّ، وفي أحيان قد تتداخل هذه الأطياف الأربعة في سلوك أو فعل إنسانيّ واحد، الذي يمكنه أن ينطوي على عدّة أبعاد مختلفة من الفعل، كأن يجتمع العقليّ بالعاطفيّ بالتقليديّ بالأخلاق في موقف واحد. وهذا ما يشير إليه ڤيبر ويتحدث عنه معلناً أن الفعل الواحد قد يكون موجّهاً بعدّة بواعث. ويمكن أن نورد مثالاً يتعلّق بإعلان أحد أساتذة الجامعة بالتوقّف عن التّدخين. ويمكن أن يكون هذا القرار محمولاً على عدة بواعث 2:

1-"باعث عقليّ: لأن التّدخين مضرّبالصّحّة كما أثبتت الأبحاث الطّبيّة والنّفسيّة، فهذا هو النّوع الأوّل من أنماط الفعل.

(39)

¹⁻ عبد الحكيم شباط، ماكس ڤيبر والفعل الاجتماعي، دار ناشري، 03 تشرين2/نوفمبر 2013. http://bitly.ws/zjnd عبد الحكيم شباط، ماكس ڤيبر والفعل الاجتماعي، دار ناشري، 33 تشرين2/نوفمبر 2013. http://bitly.ws/zjnd

- 2- باعث قيميّ: لأنّه أستاذ جامعيّ فهو يربد أن يحقّق في شخصه مفهوم القدوة لطلبته، لذلك فقد عدل عن التّدخين، وهذا هو النّوع الثّاني من أنماط الفعل.
- 3- باعث عاطفيّ: لأنّ زوجته تكره رائحة التّدخين، وحبّه لها يدفعه لتجنّب إزعاجها بهذه الرّائحة الكريهة، لذلك ترك هذا الفعل السّيّء، وهذا هو النّوع الثّالث من أنماط الفعل.
- 4- باعث تقليديّ: التّقاليد الأكاديميّة لا ترى أنّ وجود أستاذ جامعيّ مدخّن شيء مألوف، بل هي لا ترحّب بمثل هذا الفعل، لذلك تماشياً مع تقاليد العمل الأكاديميّ أقلع عن التّدخين، وبالتّالي هذا هو النّمط الرّابع من الأفعال "1.

ويمكن أن نضرب مثالاً آخر على ذلك سلوك الزّواج، فالزّواج في قد يكون قائماً على عدّة بواعث في أن واحد، عقليّة و انفعاليّة عاطفيّة وتقليديّة:

عاطفيّ: فقد يكون الباعث إليه علاقة حبّ بين رجل وامرأة.

عقلانيّ: الزّواج يؤدّي إلى الاستقرار الاجتماعيّ والعاطفيّ.

تقليديّ: التّقاليد تؤكّد أهمّية الزّواج وضرورته.

قيميّ: لأنّ الزّواج يشكّل مؤسّسة يتبادل فيها أفراد الأسرة قيم الحبّ والتّضحية والوفاء والتّعاون.

وباختصار تمثّل هذه الأنماط الأربعة التي سقناها للفعل الاجتماعي أربعة نماذج مثاليّة للفعل الاجتماعيّ ومثل هذه النّماذج لا يمكن أن توجد في الواقع كما هي لأنّها تصوّرات ذهنيّة مستمدّة من الواقع.

7-2- النّموذج المثاليّ للبيروقراطيّة:

يعتبر النّموذج المثاليّ البيروقراطيّ الذي وظّفه ڤيبر في دراسة الظّاهرة البيروقراطيّة، أكثر النّماذج وضوحاً وتقانةً ومنهجيّةً. يرى ڤيبر في هذا السياق أن البيروقراطية تشكل جوهر السلطة الإدارية في النظام الرأسمالي. ويأخذ هذا المفهوم مركزيته في نظريته المتعلقة بتنظيم الدولة، وتعدّ أنموذجاً للسيادة الشرعية العقلانية للنظام الرأسمالي ومنهجاً لترسيخ الموضوعيّة الكاملة في العمل الإداريّ، محرّراً إياه من كل أشكال التّحيّزات الذّاتيّة والعاطفيّة والإنسانيّة. وتعتمد على ركيزتي العقلانية (Rationality) والكفاية التّحيّزات الذّاتيّة والعاطفيّة والإنسانيّة. وتعتمد على المؤسّسات البيروقراطيّة يجب أن تتّجه إلى تحقيق أهداف المؤسّسات البيروقراطيّة يجب أن تتّجه إلى تحقيق أهداف المؤسّسات الإداريّة في أقلّ درجة من الجهد والتّكلفة والوقت المبذول للوصول إلى الأهداف. وينطوي هذا الأنموذج المثاليّ البيروقراطيّ على نسق من المفاهيم الأساسيّة أهمّها2:

https://drasah.com/Description.aspx?id=3599

¹⁻ عبد الحكيم شباط، ماكس ڤيبر والفعل الاجتماعي، مرجع سابق.

²⁻ يحي سعد، النظرية البيروقراطية لهاكس ويبر، موقع دراسة، 12/7/ 2020.

- 1- تسلسل السلطة: أي أن تكون السلطات متدرّجة بشكل هرميّ يكون على رأسه الإدارة العليا، بحيث تتدرّج السلطة، ومن خلال هذا التّسلسل الهرميّ يمكن ضمان التّنسيق بين مختلف النّشاطات في المنظّمة، وكذلك ضمان اتّجاه تلك النّشاطات نحو تحقيق الهدف.
- 2-اللّوائح والقوانين: أي تنظيم النّشاطات والسّلوكيّات وفق لوائح وأنظمة وتعليمات واضحة ومعروفة.
 - فصل الإدارة عن الملكيّة: إذ لا يشترط أن تكون الإدارة في يد مالكها.
- 3- الموضوعيّة: أي أنّ العلاقات الموجودة في المنظّمة ليست علاقات شخصيّة، وإنّما علاقات تنظيميّة تسير وفق القوانين واللّوائح التي تحدّدها المنظّمة.
- 4- التّخصّص: أي لا يسند العمل لأيّ فرد إلاّ في مجال تخصّصه، وبالتّالي تتكوّن لديه الخبرات والمهارات التي تؤدّى إلى إتقانه العمل.
 - 5- تقسيم محدّد بشكل دقيق للعمل الوظيفيّ، يرافقه تحديد الصّلاحيّات والحقوق والواجبات¹.
- 6- تسلسل هرميّ للوظائف تحدّد فيه آليّات الهيمنة والخضوع، بحيث يجد كلّ مستوى نفسه تحت سيطرة مستوى أعلى منه.
- 7- **قواعد قانونيّة** وفنيّة موضوعيّة وعموميّة (لا شخصيّة) تحدّد السّلوك الواجب اتّباعه والتي يتطلّب تطبيقها تشكيلات متخصّصة يتمتّع موظّفوها بمؤهّلات محدّدة، وبتمّ تعيينهم بعد اجتياز اختبارات معيّنة..
- 8- الفصل بين الموقع الإداريّ وشاغله: لإلغاء حالة التّملّك للمركز الإداريّ وأدواته من قبل شاغله، أي الفصل بين الحياة الشخصيّة والوظيفة لمنع توربث الوظائف.
- 9- الرّواتب: يتمّ احتساب رواتب نقديّة للموظّفين تتدرّج بحسب المرتبة والموقع في السّلّم الإداريّ، وبحسب طبيعة المهنة.
 - 10- التّرقية التّدريجيّة بحسب الأقدميّة وعلى أساس معايير موضوعيّة .
- 11- الاستمراريّة والثّبات للوظيفة العامّة بحيث تجري ممارستها بشكل دائم في مأمن من التقلّبات السياسيّة².

ومثل هذا النّموذج يشكّل أداةً منهجيّةً يمكن للباحثين اعتمادها في دراسة أيّ مؤسّسة أو منظّمة بيروقراطيّة وفهم طريقة عملها ودرجة نجاحها ومدى قدرتها على تمثّل أهدافها، ويساعد على تحديد أوجه

http://bitly.ws/zG8U.2019 .4

¹⁻ عبد الستار إبراهيم دهام، "التنظيم البيروقراطي إزاء الفكر الإداري المعاصر: إطار نظري"، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الاقتصادية والإدارية، العدد 2 ، 2008، ص.6.

²⁻ نقلاً عن: الحبيب بلية ومعمري المسعود، نموذج التنظيم البيروقراطي لماكس ڤيبر: الخلفيات والحدود، مجلة الميدان، العدد

القوّة والضّعف في النّظام الإداريّ البيروقراطيّ القائم في أيّ مؤسّسة بيروقراطيّة كانت، كما يمكن توظيفه لدراسة النّظام البيروقراطيّ في أيّ مجتمع من المجتمعات الرّاهنة.

7-3- الأنموذج المثالي للسلطة والسبيادة:

شكّل مفهوم السّلطة أو السّيادة أحد أركان النّظريّة الڤيبرية في علم المجتمع، ومدخلاً أساسياً من مداخل فهم المجتمع والدّولة والسّياسة. ولا ربب أنّ ڤيبر كرّس كثيراً من الجهد والعمل المضنيّ المتواصل في دراسة مسألة السّلطة وتحليل معطياتها واستكشاف كيفيّاتها واستقصاء دورها المركزيّ في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة للمجتمعات الإنسانيّة عبر التّاريخ. وقد بيّنأنّ الدّولة تقوم على بنية السّلطة وبكمن جوهرها في العلاقة السّيادة بين الحاكم والمحكوم، وأنّ سلطة الدّولة تقوم على العنف المشروع الذي يشكّل شرطاً أساسيّاً من شروط قيام الدّول واستمرارها. وأشار أيضاً إلى أنّ السّلطة ضرورة وجوديّة في تشكيل المجتمعات السّياسيّة، إذ لا يمكن لأيّ تجمّع سياسيّ عبر التّاريخ أن يكون دون سلطة تخوّل لحاكم أو سلطان أو زعيم سياسيّ أو زعيم دينيّ أو طبقة سياسيّة اجتماعيّة مّا بتوجيه المجتمع وإدارته والتّحكّم بمصادره. وبرى ڤيبر أنّ السّلطة (Authority)، أيّ سلطة، تحاول أن تتّخذ لها غطاءً شرعيّاً دينيّاً أو سحريّاً أو لاهوتيّاً أو وضعيّاً وتأخذ هذه الشّرعيّة ثلاثة مستوبات: السّلطة التّقليديّة (Traditional)، والسّلطة الكارزميّة (Charismatic)، والسّلطة الوضعيّة (Positive)، وعلى هذا الأساس فإنّ الشّرعيّة التّقليديّة تؤسّس للسّيطرة التّقليديّة، مثل: الحكومات الملكيّة المتوارثة، أو السّلطة في المجتمعات الإقطاعيّة، والشّرعيّة الكاريزميّة للسّيطرة الكاريزميّة التي تعتمد على سمات الفرد الزّعيم ومزاياه، والشّرعيّة القانونيّة التي تعزّز السّيطرة العقلانيّة للبيروقراطيّة - القانونيّة. وبقابل نماذج السّيطرة هذه نماذج مثل: الأنظمة السياسيّة: ملكيّات، دكتاتوريّات، حكم برلمانيّ عقلانيّ) مقرونة بنماذج نخبويّة قديمة، أنبياء موظّفون $^{-1}$

7-3-7 السلطة الكارزميّة (charismatic authority):

يتجلّى مفهوم الكاربزما² قديماً في الدّلالة على معنى النّعمة الإلهيّة التي تضفى على الفرد الكارزميّ مزايا استثنائيّةً مثل القوّة والجمال والحكمة والقدرة على التّنبّؤ واحداث التّغيير في المجتمع من أجل الخلاص الأبدى للشّعوب والأمم كالمسيح المنتظر. وعلى خلاف هذه الرّؤبة الدّينيّة لمفهوم الكاربزما، يرى ڤيبر أنّها نتاج اجتماعيّ لشخصيّات استطاعت أن تتمثّل قيم القوّة والإلهام والتّأثير في المجتمع. وتأسيساً على هذه الرّؤبة، تتمثّل السّلطة الكاربزميّة في الإيمان بوجود الفرد الذي يمتلك قدرة استثنائيّة مخصّبة بجاذبيّة سحريّة تشدّ إليها الجماهير وتدفعهم إلى طاعته والرّضوخ له والتّضحيّة من أجله. ويذهب في

1- لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص88.

²⁻ كاريزما (Charisma) كلمة يونانية الأصل تعنى التفضيل الإلهي لشخص إنساني بسمات وخصائص وفضائل ملهمة تفوق ما يوجد لدى البشر العاديين وتشير إلى الجاذبية الكبيرة والحضور الطاغي الذي يتمتع به بعض الأشخاص، ولاسيما قدرتهم الفائقة على التأثير في الآخرين والهيمنة عليهم روحيا واجتماعيا وغالبا ما يوصف الرجل الكاريزمية بأنه يمتلك سحرا فائقا مميزا في شخصه يوظفه في استقطاب الولاء والحماسة والطاعة لدى الآخرين من أتباعه ومريديه.

هذا السياق إلى ضرورة نزع السّحر عن السّاحر الكارزميّ، فالكارزميّ كائن اجتماعيّ وليس قدّيسا ولا يمتلك في ذاته هالة القداسة الرّوحيّة، بل هو كائن اجتماعيّ تشكّل في العمق الاجتماعيّ، واستطاع في الوقت نفسه أن ينجح في إثارة إعجاب الآخرين وتقديرهم وإيمانهم برسالته الدّينيّة أو الاجتماعيّة أو السّياسيّة. وفي قول آخر: تكمن السّمة الأساسيّة للقادة الكاريزميّين في مدى قدرتهم على إقناع الآخرين بعظمة فعلهم وقوّة إرادتهم وعمق رسالتهم وشمول غاياتهم الإنسانيّة.

وتأخذ السلطة الكارزمية صورة نوع من السيادة يتصدرها قائد ملهم، يمتلك هالة سحرية مغناطيسية جاذبة للآخرين وخصائص شخصية مميزة تفوق ما يوجد لدى البشر العاديين. وتتميز شخصية الكارزمي بالقوّة والصّلابة والسّحر الشّخصي والإلهام الخارق والقدرة على التأثير في الآخرين وإلهامهم. وتتجلّى هذه السّمة الكارزميّة في ولاء النّاس وطاعتهم وانجذابهم إلى القائد الفذّ الملهم الذي يتمتّع بقدرات نادرة فائقة مثل: البطولة، والعقلانيّة، والحكمة، والقدرة على التّأثير الملهم في الجماهير، وهي سمات نادرة قلّما تتوفّر في الآخرين من البشر، وغالباً ما يعتقد الأتباع والمريدون أنّ الأوامر التي يصدرها الزّعيم الكاريزميّ تأخذ طابعاً قدسيّاً، ولا تقبل التّفكير والتّساؤل أو الجدل.

ويمكن القول في صياغة أخرى: إنّ الكارزميّة تنبع من سمات التّفرّد والفرادة التي تميّز القادة والزعماء وتبرز في تأييد الجماهير التي تنظر إليهم بوصفهم شخصيّات فائقة على عامّة النّاس والبشر. والكارزميّة تمثّل في النّهاية صورة المثال الذي ترسمه الجماهير في مخيّلتها عن القائد الملهم المنقذ الذي تعلّق عليه الأمال في تحقيق طموحات الأمّة وأحلامها المستقبليّة 1.

ومن الأمثلة التاريخية على هذه الشّخصية الأنبياء والرّسل والقادة العظام أمثال نابليون وكونفيشوس في الصّين وبوذا وغاندي في الهند وسبارتاكوس في روما القديمة ونيلسون مانديلاً في جنوب إفريقيا وصلاح الدّين الأيّوبيّ والظّاهر بيبرس في مصر المملوكيّة وتشي غيفارا وفيدل كاسترو في كوبا وبوليفيا ومارتن لوثر وكنيدي في أمريكا. ويرى ڤيبر في هذا السّياق أنّ الأفراد الكارزميّين الملهمين مارسوا دوراً كبيراً في توجيه الأحداث التّاريخيّة في تاريخ الحضارة وأحدثوا تغيرات مهمّة في تاريخ المجتمعات الإنسانيّة. ومن يقرأ التّاريخ سيرى أنّ الثّورات والانقلابات والتّحولات الكبرى كانت على أيدي شخصيّات ملهمة من مثل: شخصيّات الأنبياء والرّسل والقادة العظام، وقد بيّن أنّ السّلطة الكاريزميّة ارتبطت بداية بالأديان ثمّ بدأت تأخذ طابعاً سياسيّاً واجتماعيّاً في العصور الحديثة. ولمّح بعض المفكّرين إلى احتمال أن تكون نظريّة ڤيبر الكارزميّة قد بشّرت بظهور الزّعيم النّازيّ الألمانيّ هتلر عام 1933، وهي الشخصية الكارزميّة التي أثارت عواطف الشّعب الألمانيّ وأشجانه في أعقاب الهزيمة المذلّة التي تعرّضت لها ألمانيا في أعقاب العرب العالمية الأولى². ويرجح

¹⁻ Max Weber (1968), On Charisma and Institution Building, Edited by Eisenstadt, University of Chicago Press, p 51. "It is written ... but I say unto you".

²⁻ Joseph Nyomarkay (1967), Charisma and Factionalism in the Nazi Party, University of Minnesota, p.9.

أن ڤيبر قد تنبّأ بظهور قائد سياسيّ كاربزميّ في دولة ديمقراطيّة علمانيّة عقلانيّة، لا في دولة فاشيّة توتاليتاريّة، كما هو حال الدّولة النازبة في ألمانيا الهتلريّة 1.

2-3-7 السّلطة التّقليديّة (Traditional authority):

تتجلّى السلطة التقليديّة في الإيمان بالطّابع المقدّس للتقاليد وفي مظاهر الخضوع للقادة والزّعماء الذين يفرضون مشروعيّة سلطتهم باسم الأعراف والتّقاليد السّائدة في مجتمع مّا. في تستمدّ مشروعيّتها من قدسيّة التقاليد ومن سلطة الماضي الأبديّة وتكتسب قدسيّتها من هيمنة الأعراف وسموّ القيم الاجتماعيّة التقليديّة المستمدّة من أعماق الماضي ومن مهابة الأسلاف. إنّها سلطة العادات المقدّسة بقيمتها العريقة التي فرضت على الإنسان قوّة سيكولوجيّة؛ تفرض عليه احترامها وتقديرها وتقديسها والخضوع لها. وهي السلطة ذاتها التي كان الأباطرة والملوك والكهنة يمارسونها في الماضي في الأنظمة العبوديّة والإقطاعيّة، وما زال هذا التّقديس يطلّ علينا اليوم في ألف وجه ووجه من تقاسيم الزّمان الحاضر.

يمكن القول بعبارة أخرى: إنّ "السلطة التقليديّة تستند إلى قدسيّة التقاليد والإيمان بخلود الماضي، وبمقتضاها ينظر النّاس إلى النّظام الاجتماعيّ القائم بوصفه مقدّساً وخالداً وغير قابل للانتهاك"². وقد يصحّ هنا القولإنّ السلطة التقليديّة تستوحي سلطة الماضي الأبديّة المتمثّلة في سلطة العادات المقدّسة التي تأصّلت في وعي الإنسان على صورة رمزيّة لا حدود لسلطانها وقدرتها على الامتثال في العقل خضوعاً ووضوحاً واستسلاماً³. ولا ربب في القول مجدداً "إنّها نفوذ " الأمس الأزليّ وهيمنة التقاليد المقدّسة المتجذّرة في وعي الإنسان وفي أعمق تكويناته الذّهنيّة الباطنيّة اللاّشعوريّة. إنّها باختصار صورة نفوذ سياسيّ أو اجتماعيّ أو دينيّ يقوم على "السّحر الشّخصيّ الفائق لفرد مّا يتفرّد بصفات شخصيّة خارقة للطّبيعة الإنسانيّة 4.

7-3-3 السلطة الوضعيّة أو العقلانيّة (Rational Authority):

تتسم السلطة العقلانية بمبدأ سيادة العقلانية وسطوة القوانين الوضعية في الدول الحديثة، ولا سيما في الدول ذات الأنظمة الرأسمالية. فالدولة الرّأسمالية البيروقراطية الحديثة بدّدت هالة القداسة التي فرضتها التقاليد الماضوية على مشروعية الملوك والأباطرة ورجال الإقطاع والأسياد، واستبدلت شرعية التقاليد بشرعية القوانين والأنظمة البيروقراطية القائمة على منطلقات العقلانية والمشروعية الديمقراطية القائمة على القيم الليبرالية، والمشاركة السياسية عبر صناديق الاقتراع والانتخاب، والتمثيل الديمقراطي الموجّه على نحو عقلاني وعلماني وبيروقراطي، يتم فيه اختيار الممثلين عن الأمّة إلى المجالس النيابية الديمقراطية التي ينتظم مسارها وفق دساتير علمانية تم تأسيسها وتأصيلها بإرادة المجتمع ومشاركة مختلف طبقاته السياسية والاجتماعية.

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 90.

²⁻ عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، عالم المعرفة، العدد 44، الكويت، 1981. ص 93.

³⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 125.

⁴⁻ جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، مرجع سابق.

يدافع ماكس ڤيبر عن الفعل العقلانيّ الهادف والهيمنة الشرعيّة القانونيّة باعتبارهما أساس اللّيبراليّة البيروقراطيّة العاقلة والرّاشدة. وفي هذا الصّدد، يقول ماكس ڤيبر: "يتطلّع كل علم إلى الحقيقة. والحقيقة التي يتطلّع إليها العلم تكون إمّا عقلانيّة ورياضيّة ومنطقيّة، وإما لاعقلانيّة شعوريّة. والحقيقة العقلانيّة، في النّشاط والفعل هي، قبل كلّ شيء فكريّة واضحة تمام الوضوح (2+2=4). وأمّا الحقيقة اللاّعقلانيّة والشّعوريّة، في النّشاط فهي، قبل كل شيء، وجدانيّة... أ.

فالإيمان بقانونيّة النّظام وشرعيّته يحيل إلى قوّة القانون، بوصفها قاعدةً شاملةً مجرّدةً لا شخصيّة. إنّ الإدارة الحديثة تمثّل صيغة النّموذج - المثال للسّيطرة العقلانيّة المشروعة وهي الشّكل الذي تتجلّى فيه العقلنة، أي النّفوذ المتنامي لعقلانيّة شكليّة مبنيّة على التّطبيق المنهجيّ للأنظمة والإجراءات، ومفسحة في المجال لكي تكون الأشياء محسوبة وقابلة للاستشراف. هكذا تبدو البيروقراطيّة بمثابة شكل رمزيّ من أشكال العقلانيّة الغربيّة (121)؛ نظراً إلى أنّ فيبر يشدّد على أوّليّة الشّرعيّة العقلانيّة القانونيّة في المجتمعات المحظيّة بدولة حديثة، فإنّ فكره السياسيّ هو من نوع السّوسيولوجيا المعنيّة بإقامة الصّيغ والأشكال العقليّة على التّمام والكمال مثل سوسيولوجيا الاقتصاد، أو سوسيولوجيا الأديان².

إنّ كلّ تفكير في الأسس الشّرعيّة المتعلّقة بالخضوع للسّيطرة السياسيّة تتمفصل إذن حول هذه الصّيغ الثّلاث «النّقيّة». التي تحيل إلى سلطة الزّمن وسلطة الإنسان وسلطة العقل. هذه النّماذج الصّافية لا تلتقي معزولة لأنّ الحقيقة التّاريخيّة تقدّمها في صيغ مركّبة. وبعيداً عن تجميع هذه الصّيغ الخاصّة من السّيطرة في لحظات تاريخيّة فريدة (ملكيّة، وتقاليد بيروقراطيّة، وحداثة)، يستنتج ڤيبر أنّ نماذج الشّرعيّة الثّلاثة هذه تتراكب فوق بعضها أكثر ممّا تتتابع في الو اقع التّاريخيّ، وهكذا يمكن أن تكون بعض عناصر الشّرعنة الكاريزميّة، ومنها «ديموقراطيّة القادة بالاستفتاء»، حاضرة في آليّة عمل المؤسّسات الحديثة، ويمكن لهؤلاء القادة أن يعرقلوا الوضعنة - التّشيّؤ والاستشر افيّة - القابليّة لحساب التّكنوقراطيّة?

ثالثًا، ترتكز السلطة القانونية العقلانية على قوانين محددة بوضوح، ولا تستند طاعة النّاس إلى قدرة أي قائد، بل إلى الشّرعيّة والكفاءة التي تمنحها الإجراءات والقوانين للأشخاص في السّلطة. يعتمد المجتمع المعاصر (الحديث) على هذا النّوع من التبّرير، وهناك قوّة البيروقراطيّة على الأفراد التي تعالج مشاكل الجميع ومخاوفهم للحفاظ على النّظام والتّنظيم.

.

¹⁻ جميل حمداوي، نظريات علم الاجتماع، مرجع سابق.

²⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 91.

³⁻ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

8- النَّمط المثاليّ للرَّأسماليّة:

تشكّل الرّأسماليّة بوصفها نظاماً اقتصاديّاً أحد أهم الظّواهر الوجوديّة في عالمنا المعاصر. وقد فرضت هذه الظّاهرة حضورها الكبير منذ الثّورة الصناعيّة الأولى في منتصف القرن الثّامن عشر. ومن أفضل تعريفات الرّأسماليّة وأكثرها تعبيراً وصدقاً وتفوّقاً هو التّعريف الذي ورد في خطبة بنيامين فرانكلين (Benjamin Franklin). فهو يؤكّد فكرة جوهريّة قوامها أنّ الوقت والائتمان هما المال والثّروة، إذ يقول: "إنّ الائتمان هو المال، وإذا ما ترك أحدُهم مالّهُ بين يدي بعد انتهاء أجلِه، فإنّه يكون قد قدّم لي فائدةَ المبلغ، أو كلنَّ ما يمكن أن أستفيده من ماله خلال هذا الوقت... وهو ما يمكن أن يصل إلى مبلغ كبير إذا تصرفت بكثير من الاعتمادات واستخدمتها بشكل مفيد. تذكّر أنّ المال هو بطبيعته مُولِّدٌ وكثير الإنتاج. المالُ يولّد المال، و" أولادُه" يمكن أن تلِد أكثر، وهكذا دَوالَيك... إذا اشتغلت الخمسة شلنات تصبح ستّة، ثم تتحوّل إلى سبع شلنات، وكلما زاد عدد الشّلنات كلّما ازداد الإنتاج والكسب أكثر وأكثر. والذي يقتل خِنزيرةً فهو يمكنها أن تُنتجه: أكوامٌ من اللّها، والذي يغتال قطعةً من النّقود من خمسة شلنات يقضي على كل ما يمكنها أن تُنتجه: أكوامٌ من اللّهرات الاسترلينيّة!"2.

تشكّل الرّأسماليّة الثّقل الأكبر في النّظام الفكريّ عند ماكس ڤيبر ويشكّل مفهومها عمقاً استراتيجيّاً في نظريّته حول التّطوّر الرّأسماليّ ونشوء الدّولة وانبثاق النّظام الرّأسماليّ، وقد عرف ڤيبر بكتابه الشّهير (الأخلاق البروتستانتية والرّوح الرّأسماليّة) الذي يتناول فيه نشأة النظام الرأسمالي ودور القيم الدّينيّة العقلانية في نشوئه وتطوّره. وقد كان لزاماً عليه أن يقدّمه في نموذج مثاليّ يتّسم بالجلاء والوضوح، ويتسم هذا النّموذج الرّأسماليّ بالسّمات الآتية:

1- تقوم الرّأسماليّة على مبدأ امتلاك وسائل الإنتاج المادّي جميعها مثل المصانع والمعامل والآلات وتكون الملكيّة ملكيّة خاصّة لمعظم هذه الوسائل.

2- تنطلق الرّأسماليّة من منصّة حريّة الأسواق والتّجارة وحريّة تدفّق البضائع دون حواجز جمركيّة بين الدّول والمقاطعات. وهذا يشكّل الدّورة الدّمويّة الحقيقية لنمو الاقتصاد الرأسمالي.

3- تعتمد الرأسماليّة بقوّة على أهميّة التّكنولوجيا والتّقانة العالية. وقد أصبح الإنتاج التّقنيّ وإنتاج التّقانة والتّكنولوجيا وتطويرها من أهمّ سمات النّظام الرّأسماليّ وخصائصه.

¹⁻ بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) (1790—1790) هو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة. كان موسوعيًا وكاتبًا وطابعًا وفيلسوفًا سياسيًا وعالمًا ومخترعًا ورجل فكاهة وناشطًا مدنيًا ورجل دولة ودبلوماسيًا. كان شخصية بارزة في التنوير الأمريكي وفي تاريخ الفيزياء بسبب اكتشافاته ونظرياته في الكهرباء. وكمخترع، فهو معروف بمانع الصواعق والنظارات ثنائية البؤرة وموقد فرانكلين، وغيرها من الاختراعات. أسس العديد من المنظمات المدنية، بما في ذلك شركة المكتبة وأول قسم إطفاء بفيلادلفيا وجامعة بنسلفانيا.

²⁻ ماكس ڤيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلّد، مركز الإنماء القومي، مراجعة: جورج أبي صالح، بيروت، لبنان، 1990، ص26-27.

- 4- تركّز على مفهوم اللّيبراليّة الذي يمتثل لمبدأ حرّية التّفكير والتّملّك والتّنقّل والعمل، وهي سمات النّظام اللّيبراليّ الحرّ في المجتمعات الرأسماليّة.
- 5- الاستثمار في البشر والأموال وإتاحة الفرصة للقادرين من السّكّان بالمشاركة في عمليّة الاستثمار الاقتصاديّ، بأموالهم وعملهم وخبراتهم وكفاءاتهم عن طريق الشّركات والمؤسّسات المساهمة القائمة على تجميع قوّة المال والخبرة والعمل، ودمجها في صورة قوّة اقتصاديّة مؤسساتيّة.
- 6- العقلنة والعلمنة في مختلف مناحي الحياة الرّأسماليّة في عمليّات الإنتاج والتّوزيع والإدارة والاستثمار.
- 7- ظهور المؤسّسات الإنتاجيّة العملاقة، فمع التّطوّر العقلانيّ أصبح أيّ فرد في المجتمعات الحديثة يعمل ضمن مؤسّسة ضخمة أو جهاز بيروقراطيّ.
- 8- نموّ المؤسّسات الاجتماعيّة الإنتاجيّة بوصفها قوّةً هائلةً وتزايد تخصّصاتها في مختلف ميادين الحياة والإنتاج.
- 9- تقدير أهمية العمل والوقت والمال بوصفها قوّة اقتصاديّة رأسماليّة فاعلة في عملية الإنتاج الرّأسماليّ.
 - 10- التّخصِّص الوظيفيّ وزيادة تقسيم العمل بين الأفراد والمؤسّسات.
- 11 الاعتماد على الخبرات والكفاءات والمهارات التي تعطي للشّخص، أو للمؤسّسة قيمته الإنسانيّة في داخل النّظام الرّأسماليّ. والرّأسماليّة هي في نهاية الأمر نتاج فاعل في عمليّة عقلنة المجتمع والحضارة الإنسانيّة.
- 12 ترتكز الرّأسماليّة على مبدأ جعل الثّراء والرّبح ضرورة أخلاقيّة، وهذا يعني أنّ الرّبح هو قيمة غائيّة لا وسيليّة.
- 13- يقوم جوهر الرّأسماليّة على مبدأ العقلانيّة والتّراكميّة في كلّ مظهر من مظاهرها وتركّز على عقلنة العلاقة بين الوسائل والغايات وتربط جوهريّاً بين الادّخار والاستثمار.

هذه أبرز سمات النّموذج المثاليّ للرّأسماليّة الحديثة عند ڤيبر.

9- الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة:

يعد ڤيبر المؤسّس الرّئيس لعلم الاجتماع الدّينيّ دون منازع. فهو الذي شيّده بقوّة ومناعة في سياق عدد من إبداعاته السّوسيولوجيّة في الحقل الدّينيّ، ولا سيّما كتابه المشهور "الأخلاق البروتستانتيّة والرّوح الرأسماليّة ". ويُجمع علماء الاجتماع، على أنّ أعماله وكتاباته في المجال الدّينيّ كانت من أكثر الأعمال السّوسيولوجيّة أهمّية وخطورة وإثارة في القرن العشرين. ومن الواضح أنّ عبقريّة ڤيبر قد توهّجت إبداعاً في تناوله للعلاقة بين الأديان والحضارات، ولا سيّما العلاقة بين الأخلاق البروتستانتيّة وصعود الرّأسمالية الغربيّة. ومن المعروف أنّ ڤيبر كان قد انكبّ على دراسة العلاقة بين الحضارة والأديان العالميّة البوذيّة، والكونفوشيوسيّة، والهودية، والإسلام، والمسيحية في مختلف تجلّياتها الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

والكالفينيّة. ويُستدلّ على عمق إنتاجه السوسيولوجيّ في مجال الأديان بإنتاجه الفكريّ الغزير المتدفّق في هذا الميدان. فقد ترك لنا مجموعة من الكتب المهمّة في مجال سوسيولوجيا الأديان أهمّها: الدّين في الهند (The Religion of India) وكتاب المهوديّة القديمة (Ancient Judaism)، والدّيانة في الصّين (Religion of China)، وعلم الاجتماع الدّينيّ (The Sociology of Religion , 1922)، وكتابه الأشهر (الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرّأسماليّة) (Capitalism ,1904).

وقد ركّز قيبر في هذا الفرع الجديد من علم الاجتماع (علم اجتماع الأديان) على دراسة تأثير القيم الدّينيّة وتأثيرها في تشكيل الأنظمة الاقتصاديّة السّياسيّة عبر التّاريخ. واستطاع أن يقدّم لنا نظريّته التي تؤكّد التّأثير الكبير للمذهب البروتستانتيّ المسيحيّ في نشوء الرّأسماليّة وتطوّرها. وفي عمق هذه النّظريّة يرى قيبر أنّ منظومة القيم الأخلاقيّة البروتستانتيّة أسّست لنشأة الرّأسماليّة وتطوّرها في أوروبا الغربيّة. وهنا نؤكّد أنّ قيبر كان يتناول تأثير القيم الدّينيّة في الاقتصاد والسّياسة، ولم يكن مهتماً بالطّابع الإيمانيّ للدّين وقضاياه الوجوديّة، بل كان يركّز على تأثير القيم الدّينيّة في السّلوك الاقتصاديّ. يقول في هذا الإطار: "إنّنا لسنا مهتمّين بتأكيد ما كان يدرس نظريّاً ورسميّاً في مجال الأخلاق في ذلك الزّمان، ولكنّنا مهتمّون بشيء مختلف كليّة وهو تأثير التصديقات السّيكولوجيّة المتولّدة عن الاعتقاد الدّينيّ والممارسة الدّينيّة التي تعطي توجيها للسّلوك العمليّ يلتزم به الفرد"1.

وإذا كان من الصّعب استعراض التّجلّيات السوسيولوجيّة للدّين في فكر ڤيبر فإنّنا سنكتفي في هذه السّياق بالتّعرّض لنظريّته المتعلّقة بتأثير القيم البروتستانتيّة في نشوء الحداثة الرّأسماليّة، وهي من أهمّ النّظريّات التي أسالت مداد المفكّرين والباحثين منذ بداية القرن التّاسع عشر حتّى اليوم.

ويذهب ڤيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرّأسماليّة إلى تعظيم الأثر الذي أحدثته الأخلاق والقيم البروتستانتيّة في قيام النّظام الرّأسماليّ ونشأته، وهو بهذا يخالف ماركس الذي يرى أنّ البنية التّحتيّة بقواها وعلاقاتها الإنتاجيّة توجد في أصل تشكّل وقيام النّظام الرّأسماليّ وذلك على منوال الأنظمة الاجتماعيّة الأخرى الإقطاعيّة والعبوديّة. أما ڤيبر، فيذهب إلى أنّ البنية الفوقيّة بأفكارها وقيمها وتصوّراتها هي التي تؤثّر في التأسيس للنظام الاقتصاديّ الاجتماعيّ القائم. ففي كتابه الأخلاق البروتستانتيّة يقدّم ڤيبر رؤية دقيقة تفصيليّة لتأثير القيم الكالفينيّة الطّهريّة في تسريع وتائر نموّ النظام الرئسماليّ وتشكّله، ويركّز على التّأثير الخلاق للقيم البروتستانتيّة حول العمل والوقت والرّبح والتّوفير والرّأسمالي والمسؤوليّة في قيام النظام الرأسمالي الحديث ونهضته.

انطلق ڤيبر في تأسيس رؤيته للعلاقة بين الدّين والحضارة من أسئلة متدرّجة في طبيعتها المنهجيّة يتصدّرها سؤال مركزيّ قوامه: هل تؤثّر التّصوّرات والقيم الدّينيّة الإيمانيّة في السّلوك الاقتصاديّ للأفراد

(48)

¹⁻ نقلا عن: محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني ومشكلات العالم الإسلامي (الأزاريطية: دار المعرفة الجامعية، 2003، ص272-272.

في مختلف المجتمعات الإنسانيّة؟ أ. وفي معرض الإجابة عن هذا السّؤال، يرى ڤيبر أنّ القيم الدّينيّة تشكّل المدخل المنهجيّ لدراسة التّطوّر الاقتصاديّ وفهمه كما "أنّ سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات لا يُفهَم إلاّ في سياق تصوّرهم العام للوجود، وأنّ المعتقدات الدّينيّة تؤثّر في سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السّلوك الاقتصاديّ أ. وفي هذا التّساوق يتناول ڤيبر العلاقة بين القيم الدّينيّة البروتستانتيّة والنّظام الرّأسماليّ ويبحث في العلاقة بين النظامين على مستوى القيم. ويرى باختصار أنّ القيم والتّصوّرات التي تبهّا البروتستانتيّة تتناسب مع متطلّبات النّظام الاقتصاديّ الرّأسماليّ.

وهنا يمكننا أن نتساءل "كيف يستدلّ ڤيبرعلى هذا التّأثيرالذي أحدثته القيم الدّينيّة البروتستانتيّة في النّظام الرّأسماليّ؟"

يلاحظ ڤيبر أنّ الرّأسماليّة القويّة انتشرت في المناطق التي تشهد نفوذاً كبيراً للمذهب البروتستانيّ الكالفينيّ في أوروبا وأمربكا، ولا سيّما في بربطانيا وألمانيا. وكانت وتائر نموّها ضعيفة في البلدان التي هيمنت فيها الكاثوليكيّة التقليديّة المسيحيّة. فقد بيّنت الإحصائيّات التي اعتمدها ڤيبر حول هذه المسألة في ألمانيا أنّ كبار رجال الأعمال وأصحاب الحيازات الرأسماليّة ومُمثّلي الشّرائح العليا من اليد العاملة والملاك التّقني والتّجاريّ في المؤسّسات الحديثة هم بأغلبيّهم العُظمى من البروتستانت، علماً بأنّ ألمانيا بلدٌ تتعايش فيه طوائفُ دينيّةٌ متعدّدة. كما أنّ غالبية سكّان المدن الغنيّة والأكثر تطوُّراً من الناحية الاقتصاديّة قد اعتنقت البروتستانتية منذ القرن السادسَ عشرَ" 3. ولا "أدلَّ على ذلك -كما لاحظ ڤيبر - من أنّ المناطق التي تسُود فيها البروتستانتيّة -الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا في أيّامنا هذه) وإنكلترا وغيرها - هي أهمُّ الدّول الصناعيّة التي تطوّرت فيها الرأسماليّة، في حين أنّ المناطق التي تعتنق الكاثوليكيّة بغالبيّها العُظمى هي الصناعيّة التي تطوّرت فيها الرأسماليّة، في حين أنّ المناطق التي تعتنق الكاثوليكيّة بغالبيّها العُظمى هي الأقلُّ تطوُّراً من النّاحية الصّناعيّة والاقتصاديّة "4.

ومن ثمّ ينطلق ڤيبر في تحديد أهمّ القيم البروتستانتيّة النّشطة التي تعزّز السّلوك الرّأسماليّ وترسّخ القيم الرأسماليّة، ومنها إعلاء قيم العمل والعقلانيّة والحرّية والمحافظة على المال وتنميته، واعتبارها واجباً دينيّاً مقدّساً ومحاربة فكرة هدر المال. وفي المقابل يُلاحظ ڤيبر أنّ القيم الماثلة في الأديان الاتكاليّة التّقشفيّة القدريّة الزّهديّة كالبوذيّة، والكونفوشيوسيّة، والإسلاميّة، والمسيحيّة الكاثوليكيّة لا تشجّع على تنمية العمل والمال ولا تؤسّس للنّظام الرّأسماليّ بصورته العقلانيّة. ويرى في هذا السّياق أنّ البروتستانتيّة تشكّل ثورة عقلانيّة ضدّ أوهام الكاثوليكيّة التي تناسب الأنظمة الإقطاعيّة التوتاليريّة التي تعتمد على الأوهام والأساطير والمعجزات وتقلّل من دور العمل والعقلانيّة وهي القيم ذاتها التي أدت إلى تخلّف المجتمعات الغربيّة في العصر الوسيط.

¹⁻ انظر: كاترين كوليو تيلين، ماكس ڤيبر والتاريخ، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص34-35.

²⁻ زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني (مكتبة غريب، 1981)، ص 110

³⁻ براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مجلة حكمة، http://bitly.ws/zoxK .2021/6/21

⁴⁻ المرجع نفسه.

ويصف ڤيبر الكاثوليكية بأنّها تشكّل دعوة دينيّة محافظة تركّز على الطّابع الزّهديّ تقشّفاً في الأرض وتأمّلاً في معجزات السّماء. وهي بذلك تعزّز لدى أنصارها قيم اللاّمبالاة والتقشّف والطّاعة والحرمان على نحو تتناقض فيه مع الصّورة التي ترسّخها البروتستانتيّة الدّاعية إلى الحرّيّة والنّشاط والمسؤوليّة والعقلانيّة وفهم العالم والإحاطة به علميّاً والسّيطرة عليه معرفيّاً. وينقل ڤيبر عن مونتسكيو صاحب روح القوانين وصفاً للإنكليز البروتستانت: «أنّهم أكثر شعوب العالم انتفاعاً من أشيائهم الثّلاثة الكبرى: الدّين، والتّجارة، والحرّية ". وهذا يؤكّد الرّوح الرّأسماليّة للبروتستانتيّة. ويمكن القول في هذا السّياق: إنّ مفهوم الرّوح الرأسماليّة (Spirit of Capitalism) يعبّر عن منظومة القيم الأخلاقيّة الاقتصاديّة التي تنعيّ في الإنسان مواقفه الإيجابيّة من العمل والمال والإنتاج والعقلانيّة والثّروة. ونجد تفاصيل هذه الرّوح في كتابه المشهور «الأخلاق البروتستانتيّة في أوروبا في بريطانيا وألمانيا وألمانية البروتستانتيّة، ويرى في سياق هذا التّناول أنّ الانتشار الكبير للرّأسماليّة يعود إلى التّخاصب الملهم بين العقلانيّة الدّينيّة والعقلانيّة الاقتصاديّة القائم ما بين البروتستانتيّة والرأسماليّة، وهنا يؤكّد ڤيبر بين العقلانيّة العقلنة الأخلاقيّة للدّين بوصفه مؤثّراً فاعلاً في التّنمية الاقتصاديّة الرأسماليّة.

ومن الواضح تماماً أنّ ڤيبر يؤكّد هذا التّخاصب البديع بين العقلانيّة الدّينيّة التي تمثّلها البروتستانتيّة والعقلانيّة الاقتصاديّة التي تمثّلها الرّأسماليّة، ويؤدّي هذا التّخاصب إلى النّمو الاقتصاديّ والرأسماليّة الكبير الذي يتشكّل في قلب النّظام الرّأسماليّ. ومن هذا المنطلق يريد أن يقول لنا: إنّ الأخلاق الرأسماليّة تجسد الرّوح الحقيقيّة للرأسماليّة ومن غير هذه الأخلاق الفاعلة اقتصاديّاً واجتماعيّاً ستتحوّل الرّأسماليّة إلى رأسماليّة متصلّبة من غير روح أو وجدان أخلاقيّ. وهو ما يعني أنّ مطالب الحرّية والعقلانيّة للبروتستانتيّة تؤدّي بصورة طبيعيّة إلى توليد النّظام الرأسماليّ وترسيخ مساراته الاقتصاديّة.

أوضح ڤيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتيّة أنّ المذهب البروتستانيّ يدعو الإنسان إلى بذل أقصى جهد ممكن في مجال الحصول على المال وجمعه وتنميته ويطالبه بأن يستمرّ في أداء هذا الدّور الاقتصاديّ في غير حاجة إليه، وفي هذه الدّعوة تصريح بروتستانيّ واضح بأنّ جمع المال وتنميته هدف غائيّ واضح. و يشكّل واجباً مقدّساً عند الإنسان المؤمن في حدّ ذاته أ. وقد مثّل هذا الواجب الدّينيّ دفعة كبيرةً هائلةً لنموّ النظام الرّأسماليّ في أوروبا وأمريكا البروتستانتييّن، ويذهب ڤيبر إلى أنّ هذه الروح البروتستانتيّة قد شكّلت الطّاقة الملهمة للنّظام الرّأسماليّ العالميّ وقوّته المذهلة، وتأكيداً لطبيعة هذا التّأثير الكبير للقيم الدّينيّة البروتستانتيّة في الرأسماليّة.

ومن المثير للاهتمام أنّ فيبر لم يضع المذاهب البروتستانتيّة في سلّة واحدة من حيث التّأثير، بل وجدناه يركّز على المذهب الكالفينيّ²، ويغوص في مضامينه القيميّة، ويبحث في تأثيره العميق في النّظام الرّأسماليّ

2- الكالڤينيّة هي مذهب مسيحي بروتستانتي يعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جان كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و 1559م مؤلّفه (مبادئ الإيمان المسيحي) الذي يعّد من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية الإصلاحية

¹⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 126.

مؤكّداً أهمّيّة التّأثير الكبير الذي حقّقه في تغذية النّظام الرّأسماليّ بالأفكار والقيم الملهمة. ف قد جاء في وصايا جون كالفن (John Calvin) زعيم النّزعة الكالفينيّة قوله: إنّ "النّجاح على الصّعيد المادّيّ هو دلالة على نعمة إلهيّة واختيار مسبق للخلاص" وهي واحدة من عشرات المقولات والوصايا والقيم التي تجد مجدها في الكالفينيّة تارة وفي اللّوثريّة تارة أخرى، وجميعها تحضّ على العمل والعقلانيّة والحرّيّة والإيمان بقدرة الإنسان ومسؤوليّاته الأخلاقيّة في الدّنيا قبل الآخرة. ويركّز ڤيبر على المذهب الطّهري الكالفينيّ بخاصة. ويرى أنّ القيم الكالفينيّة التّقشّف والعقلانيّة والو اقعيّة والإنتاج والعمل والفرديّة كان لها أكبر الأثر في نموّ الرأسماليّة وازدهارها في أوروبا وفي أمريكا 2. وعلى هذا النّحو يرى ڤيبر أنّ البروتستانتيّة - في شِقّها الكالفينيّ بخاصة - "هي مجموعةٌ من الحوافز التي تدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج، وتحصيل الثّروة والإسهام في زيادة ازدهار الحياة الاقتصاديّة، بل إنّها تمنح المهنة قيمةً أخلاقيّة كبرى، وتُقدّس العمل إلى درجة أنها ترى في تأدية العمل -بأمانةٍ وحيويّةٍ وحماسةٍ - واجباً مقدّساً "3.

ينظر اللآهوت البروتستانتيّ الكالفينيّ إلى العمل بوصفه إلهاماً مقدّساً فرضته إرادة إلهيّة بنداء ربانيّ، وجعله فوق ذلك كلّه الوسيلة الأسمى، إن لم تكن الوحيدة، في مطلب النّعمة والخلاص" وعلى هذا النّحو وكُلّما "عمِل المرءُ بنشاطٍ أكثرَ وحيويةٍ أكبر كان ذلك له من علامات رضى الله عنه. كما عليه في الأن عينه ألا يقتطع من المال الذي يَجنيه من عمله الدّؤوب إلّا ما هو ضروريٍّ لأنْ يعيش عِيشةً راضيةً قنُوعاً تحرّم شريعة الله وحُكمه وتقديره. إقرأ إنْ شئتَ قول بعض الطُّهريّين البروتستانت. وعلى هذه الصّورة يرتفع شعار الكالفينيّة بـ "إنّنا لا نعمل فقط لكي نعيش، بل إننا نعيش لأجل حُبّ العمل، وإذا لم يكن لدينا ما نعمل فإنّنا ننام النّوم الأبديّ". ويأخذ هذه القول دلالته في الشّعار الكالفينيّ الذي يقول: "إنّ بليداً أو مُتكاسلاً لا يمكن أن يكون مسيحيّاً ولا أنْ يحظى بالخلاص"6. ومن الطبيعي جدّاً أن يبالغ أصحاب المذهب في تقشّفهم الطّهري إلى حدّ الإيمان بأنّ "إنفاق أي قطعة نُقودٍ إنّما هو أمر يتمّ بمشيئة الله وفي سبيل إرضائه، ويتم هذا المطلب في الدّعوة إلى الحرص على المال لأن المال هو مال الله ويجب ألّا يتم تبديده أو الإسراف في إنفاقه. وعلى هذا الأساس يرى ڤيبر أنّه لا بد لمثل هذه الرّوح الاقتصاديّة التّقشفيّة الاستثماريّة في الكالفينيّة، أن تكون قد أثمرت وأزهرت في تشييد الكيان الرّأسماليّ القائم على العمل والاستثمار والإنتاج، رفضاً لكلّ أشكال البّذخ والإسراف والترف، وهي التي استطاعت أن تؤسّس للرّوح الرّأسماليّة وأن تعمل على تطوير آليّات عملها وازدهارها7.

¹⁻ موسوعة المعرفة، الكالفينية، http://bitly.ws/zUwZ

²⁻ إسماعيل نوري الربيعي، ڤيبر والعقلانية الألمانية، أكاديميا ، 1/26/2029 http://bitly.ws/zpc9

³⁻ براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.

⁴⁻ ماكس ڤيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلّد، ص146.

⁵⁻ المصدر نفسه، ص154.

⁶⁻ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷⁻ براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.

وفي الختام نقول حاول ڤيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرّأسماليّة" أن يبرهن على أنّ الرّأسماليّة -من حيث كونُها أهم ظاهرة اقتصاديّة حديثة- "هي من نتاج الرّوح الدّينيّة البروتستانتيّة بأخلاقها وقيمها ومعتقداتها، وخصوصاً لدى أتباع الكالفينيّة؛ إذ إنّ هذه الطّائفة البروتستانتيّة تعمل على تشجيع الادّخار والاستثمار، بل إنّ أتباعها يُقدّسون العمل ويحترمون أرباب المهن، بالإضافة إلى فرضِها الواجباتِ والقواعدَ التي تُنظّم السّلوك الاقتصاديّ، ونبذِها الخمولَ والتّكاسلَ والتّواكلَ، وتحذيرها أتباعها من ضَعفَ الهمّة وخَوَرَ العزيمة، وتنفيرها إيّاهم من الرّكود والرُّقود والقعود، وحمُّها على الحركة والنّشاط من أجل العمل والكسب، بوصفهما سبيلاً لتحقيق الخلاص الفرديّ".

10- من ماركس إلى ماكس ڤيبر:

تشكّل نظريّة ماركس في المادّية التّاريخيّة والجدليّة مدخلاً منهجيّاً أصيلاً في فهم ڤيبر ونظريّاته المثاليّة ويكفي أن يقلّب المرء نظريّة ماركس ليجد نفسه في فضاء نظرية ڤيبر، لأنّ نظريّة ڤيبر تشكّل النقيض المثاليّ لنظريّة كارل ماركس المادّيّة. وفي جدل التّضادّ والتّناقض بين مثاليّة ڤيبر ومادّيّة ماركس، تنفتح آفاق فسيحة لفهم مختلف التّجليّات الفكريّة الخصيبة في الفكر والفلسفة والمناهج الاجتماعيّة. وحال هذا التّناقض بين النّظريتين يمتثل واضحاً في التّشبيه الشّعريّ القائل: ضِدّانِ لمّا اسْتَجْمَعا حَسُنا والضّدّ يُظُهِرُ حُسْنَه الضِدُّ. وقد يجد الباحث في هذه المقارية بين النظريّتين أنّ كلاً منهما تشكّل محكّاً منهجيّاً لفهم الأخرى ورصد حركتها الفكريّة؛ لأنّ سماء ڤيبر تنعكس على الصّفحات المائيّة في البحر الماركسيّ المتلاطم الأمواج. ويتجلّى التّناقض القائم بينهما على صورة تناقض جدلي دياليكتيكيّ يتخاصب فيه التّناقض بين الطّرفين على صورة توليد ذهنيّ فكريّ يتجاوزهما كلاهما في حركة من الفهم والتّوالد لا تتوقّف أبداً.

لقد أقر ماكس ڤيبر بداية بأنّه ولد في عالم فكريّ، هو في جزء كبير منه من صنع كارل ماركس وفريدريش نيتشه" في عالم فكريّ و أيديولوجيّ، إمّا أن يكون فيه المرء مع ماركس أو ضدّه ولا وسط بين الحدّين. وقد شكّل هذا الضّغط الفكريّ الماركسيّ كابوس ماكس ڤيبر الذي لازمه كظلّه. ورغم ذلك لم يستكن ڤيبر في البحث عن منهجيّة جديدة تخرجه من وهج ماركس وعن قوّة هائلة تضعه خارج المدار الماركسيّ الذي استقطب الفكر والمعرفة والفلسفة في القرن التّاسع عشر ولم يزل. وقد شكّل هذا التّحدّي الماركسيّ قوّة حافزة لماكس ڤيبر الذي استلهم ماركس وعمل على تجاوزه بطريقة انعكاسيّة، على صورة انقلاب شامل ضدّ بركان ماركس وطوفانه الجاذبيّ. ورغم ذلك لم يستطع ماكس ڤيبر الانفلات من قبضة ماركس نائيّاً، وكأنّ الماركسيّة كانت له قدراً ومصيراً حدّد له مصيره على نحو انعكاسيّ.

قد لا يستطيع أحد من المفكرين اليوم، أن ينكر أنّ كارل ماركس كان له أكبر الأثر في التّشكيل الفكريّ لماكس ڤيبر، وهو الذي ألهمه في جوانب كثيرة من إنتاجاته الإبداعيّة في التّاريخ والدّين والمجتمع. واستطاع ڤيبر في النّهاية أن يتمثّل ماركس ويطرح نفسه نقيضاً له في مختلف تجلّياته الفكريّة والفلسفيّة. وإذا كان

¹- براق زكريا ، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية ، مرجع سابق .

²⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 11.

ماركس قد أقريوماً بأنّه أوقف هيجل على قدميه، بعد أن كان يقف على الرّأس، فإنّ فيبر أراد أيضاً أن يوقف ماركس من جديد على قدميه، ليجعل من الفكر أصلاً في الحضارة بدلاً من أصالة الوجود في التشكيل الحضاريّ للفكر والإنسان.

ويتجلّى التّناقض بداية بين الرّجلين في الموقف الأيديولوجيّ لكلّ منهما، ففي الوقت الذي أعلن ماركس تأييده المطلق للطّبقات الفقيرة في التّاريخ، وقد جعل من نظريّته المادّية التّاريخيّة قوّة فكريّة للدّفاع عن مصالح الطّبقة العاملة وحمايتها من الجشع البرجوازيّ الرّأسماليّ، وضع ماكس ڤيبرنفسه في خدمة النّظام البرجوازيّ وانتخى ليكون أحد أكثر المدافعين عن النّظام الرّأسماليّ البرجوازيّ حماسةً واندفاعاً، ومضى بقوّة ليعلن عداوته لماركس والماركسيّة، وقد دفعت هذه العداوة بعض المفكّرين إلى وصفه بماركس البرجوازيّ، ف"مثلما كان يدافع ماركس عن البروليتاريا أو الطّبقة العاملة، فإنّ ماكس ڤيبر جعل نفسه نصيراً وأزيراً للبرجوازيّة، ونصّب نفسه المدافع المخلص عن النّظام الرأسمالي أ ولا يخفي على العارفين أن ڤيبر، رغم عداوته للماركسيّة، لم يستطع أن يخف إعجابه الكبير المتوهّج بأفكار ماركس ونظريّاته في المَادّيّية والجدليّة.

يرى فيبر في سياق معارضته للفكر الماركسيّ أنّ النّظام الاشتراكيّ الذي يدعو إليه ماركس يشكّل خطراً على المجتمعات الإنسانية، وقد حذّر من مخاطر انتشار النّظام الاشتراكيّ الماركسيّ، ورأى أنّ هذه الاشتراكيّة ستشكّل خطراً كارثياً وتهديداً للإنسان وطعناً في الكرامة الإنسانيّة، وذهب إلى أنّ انتشار النّظام الاشتراكيّ سيؤدّي إلى تفاقم التّناقضات الطبقيّة وزيادة "سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان وإلى سيطرة المنظّمات على الأفراد وحرمانهم من حرّباتهم " 2. وقد تجلّت نبوءته هذه في النّظام الدّيكتاتوريّ الشّيوعيّ للثّورة الثّورة البلشفيّة التي اندلعت في 25 أكتوبر عام 1917 وبلغت أقصى درجات وحشيّتها في العهد الدّمويّ لستالين.

لم يخف ڤيبر يوماً ولاءه الكبير للنظام الرئاسماليّ رغم تناقضاته ومثالبه، وقد عبّر عن موقفه المؤيّد للبرجوازيّة بصراحة في قوله المشهور: "إنّي عضو في الطّبقة البرجوازيّة و أنا أفخر بذلك وقد نشأت في الحضان هذه الطّبقة وتبنيت آراءها ومثلها العليا "3. ورغم تناقضه الكبير مع ماركس،أقر بوجود الصّراع الطّبقيّ وأكّد، في الوقت نفسه، أنّ المجتمع الرئاسماليّ الصّناعيّ لا يكون من غير الصّراع الطّبقيّ، لكنّه رفض أن يكون هذا الصّراع محرّكاً للتّاريخ وفاعلاً في إحداث تغييرات جوهريّة في بنية النظام الرئاسماليّ، وعزّز ذلك برفضه القاطع أن تكون السّيادة لغير الطّبقة البرجوازيّة وقد نصح هذه الطّبقة بالدّفاع عن مصالحها والمحافظة على دورها القياديّ في المجتمع .وكان يعتقد أيضاً أنّها الطّبقة الوحيدة المؤهّلة لتحقيق التّقدم والحضارة في المجتمعات الإنسانيّة. وتجدر الإشارة في هذا السّياق إلى زيارة ماكس المؤهّلة لتحقيق التّعدة الأمريكيّة عام 1904 وإلى الاستقبال الحافل المهيب الذي حظي به، ومن الواضح أن نظرياته لقيت انتشارا واسعاً في الفكر والثقافة الأمريكييّن واحتلت نظريّته البرجوازيّة مكانها السّامق في نظرياته لقيت انتشارا واسعاً في الفكر والثقافة الأمريكييّن واحتلت نظريّته البرجوازيّة مكانها السّامق في

-

¹⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية، القاهرة: دار الهاني للطباعة والنشر، 2006. ص115

²⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص115

³⁻ Max Weber, Basic Concepts in Sociology, op. Cit., p.9-29

الوسط العلميّ الأمربكيّ، وقد اتّخذت أفكاره منصّة للدّفاع عن الرأسماليّة والهجوم العنيف ضدّ الماركسيّة والأفكار الاشتراكيّة1.

10-1-من مادّية ماركس إلى مثالية فيبر:

شكّل التّناقض الأيديولوجيّ مقدّمةً لتناقض أخطر وأكبر في المستوى الفكريّ الفلسفيّ. وفي هذا المستوى نجد أنّ ماكس ڤيبر يشيّد نظريّة مناقضة تماماً لنظريّة ماركس في العلاقة بين البناء الفوقيّ والبناء التّحتيّ. ومن المعروف أنّ ماركس قد رسّخ نظريّته الاجتماعيّة في تأكيد أولويّة البناء التّحتيّ (علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج) ودوره في توليد البناء الفوقيّ (يتمثّل في الأفكار والتّصوّرات والمؤسّسات ومختلف أشكال الوعي). و هو ما يعني أنّ البنية المادّية في المجتمع تشكّل أساس الأفكار والتّصوّرات ومختلف أشكال الوعي، وقد تمثّل ذلك في قوله المشهور: "ليس وعي الناس هو الذي يحدّد وجودهم بل وجودهم الاجتماعيّ هو الذي يحدّد وعيهم". وبناءً على هذه الرّؤية لأهمّية الوجود الاجتماعيّ اتّخذت الماركسيّة تسميتها بالمادّيّة التّاريخيّة، إذ تولى الجوانب المادّية أهمّية مطلقة في تحديد مسارات الحياة الفكريّة.

وعلى النّقيض، يعاكس ڤيبر هذه الرّؤية وبذهب إلى أنّ التّكوين الذهنيّ الواعي يشكل التّشكيلات الوجوديّة الاقتصاديّة والمادّيّة. وقد تجلّت رؤبته هذه في نظريّته حول العلاقة بين الدّين والرّأسماليّة وهي الفكرة الأساسيّة لكتابه المشهور "الأخلاق البروتستانتيّة والرّوح الرأسماليّة". وببدو لبعض الكتّاب أنّ كلّ ما فعله ماكس ڤيبر هو أنّه قلب الماركسيّة رأساً على عقب. واذا صحّ التّعبير يمكن القول من وجهة نظر ڤيبرية: إنّ ماكس ڤيبر أوقف النّظرية الماركسيّة على رأسها بعد أن كانت تقف على قدمها: فالو اقع الاقتصاديّ – بحسب ڤيبر- لا يحدّد الو اقع الفكريّ السّيكولوجيّ، بل على العكس من ذلك فإنّ الو اقع الفكريّ هو الذي يحدّد الو اقع الاقتصاديّ وبرسم منحنياته الأساسيّة. وعلى هذا الأساس وجد ڤيبر أنّ ظهور الرّأسماليّة كنظام اقتصاديّ اجتماعيّ ناجم عن التّأثير الخلاّق للقيم البروتستانتيّة، وليس العكس، كما تقول الماركسيّة، وهذا يعني أنّ الأخلاق والدين كما يرى ڤيبر يشكّلان الأصل في عمليّة التّشكيل الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وأنّ النّظام الاقتصاديّ مجرّد تجلّ وتجسيدٍ للعوامل الثّقافيّة السّيكولوجيّة.

وفي مسار تأكيده هذه الرّؤية النقيضة للماركسيّة حول أهميّة البناء التّحيّ وأولويّته في تحديد مسار التّشكيلات الاقتصاديّة، كرّس ڤيبر جهوده في دراسة البني الفوقيّة في المجتمع للكشف عن تأثير العوامل الثّقافيّة في النّموّ الاقتصاديّ. وذهب إلى الاعتقاد بأنّ الوعى الثّقافيّ المتمثّل في القيم والأخلاق والمعتقدات لا يمكن أن يكون انعكاساً عفوباً للواقع الاقتصاديّ، كما يعتقد الماركسيون، وقد ذهب إلى أكثر من ذلك إذ يري بأنّ "المعتقدات والقيم أشياء واقعيّة، مثلها مثل القوى المادّيّة، ومن الممكن أن تغيّر من طبيعة الواقع الاجتماعيّ" 2. وببدو "أنّ هذا هو الهاجس الذي شغل تفكير ڤيبر ليعمل جاهداً على كشف النّقاب عن تلك

2- عبد الكريم الجندي ، ماكس ڤيبر والتفسير الثقافي لمسألة التقدم والتنمية ، الحوار المتمن ، الحوار المتمدن-العدد : 4972 -

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=490836 - 1 / 11 / 2015

¹⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص118.

المواقف الأخلاقيّة التي يصنعها الدّين في المواقف الاقتصاديّة؛ لتتحكّم في آخر المطاف في طبيعة الأنموذج والأسلوب التنموي لأفراد المجتمع"1.

وقد كرّس فيبر جهود هذا الكشف في "الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة" واستطاع إلى حدّ كبير أنّ يستجلي الدّور الكبير الذي تمارسه العوامل الثّقافيّة الأخلاقيّة والقيم والأفكار الدّينيّة في تحديد طبيعة سلوك الأفراد داخل المجتمع، وتوليد نوع من النّشاط الاقتصاديّ الرّأسماليّ. وها هو يقول في هذا الصّدد: "إن بإمكان الدّراسة الرّاهنة أن تسهم في جانها المتواضع، في تفسير كيفيّة تحوّل الأفكار إلى قوى تاريخيّة فعّالة"2، فالأفكار والمعتقدات والقيم تتفاعل وتتكامل لتشكّل قوّةً ثقافيّةً قادرةً على قولبة السّلوك الاقتصاديّ والاجتماعيّ للأفراد وتحديد مسارات النّموّ الاقتصاديّ للرأسماليّة.

ويصرّح فيبر دائماً بأنّ ثقافة المجتمع تشكل قوّة فاعلة في المجتمع وهي ليست مجرّد قوّة سلبيّة ناجمة عن تفاعلات البنية التّحتيّة في المجتمع، ومن الطّبيعيّ، وفقاً لڤيبر، أن تكون هذه القوّة قادرة على تحديد السّمات العامّة للسّلوك الاقتصاديّ -الاجتماعيّ للأفراد والجماعات في آن واحد، ويصرّر في هذا المسار على أن التكوينات السيكولوجية للذهنيات القائمة في المجتمع تتجلى في صورة معتقدات وتصورات وقيم، وهي تقوم بوظيفة توجيه السلوك الاقتصادي والاجتماعي للفرد 3.

2-10 وظيفة الوعى - تفسير العالم أم تغييره:

تتجلّى التّناقضات الانعكاسيّة القائمة بين ماكس ڤيبر وماركس في الدّور الخلاّق للعلم والفلسفة في فضاءات التغيير والتفسير. يرى ماركس أنّ مهمّة المعرفة يجب ألّا تتوقف عند تفسير العالم، بل يجب عليها تغييره وتوجيهه نحو الأفضل. وعلى خلاف ذلك يرى ڤيبر أنّ مهمّة الفكر يجب أن تتوقّف عند تفسير العالم لا تغييره. ومن المعروف أنّ ماركس قد عُرف برفضه اقتصار الوعي على الدور التّفسيري للعالم، وهو الدور الذي دأب على ممارسته منذ القدم مبشراً بدوره الجديد الذي يحمله مسؤوليّة تغيير العالم لا تفسيره فحسب، وعلى النقيض من ذلك أراد له ڤيبر أن يقتصر على دوره القديم في التّفسير، وطالب بأن يقتصر دوره على فهم العالم وتفسيره دون التّبديل والتّغيير. وعلى هذه الصّورة غرّد خارج السّرب الماركسيّ ووضع فكرته هذه نقيضاً كليّاً لفكرة ماركس عن دور المعرفة في التّغيير. ولأن ڤيبر قد أصر على وظيفة الفهم والتفسير للعلم والفلسفة وجردهما من وظيفة التغيير والتثوير استحق بجدارة لقب فيلسوف الفهم والتفسير والتأويل. وذلك على صورة النقيض لماركس الفيلسوف الذي أضاف للوعي مهمّة التّدخّل والتّأثير والتّغيير وجعل من هذا الدّور وظيفة حيوبة أساسيّة للعلم والوعي والمعرفة الإنسانيّة.

-

¹⁻ عبد الكريم الجندي، ماكس ڤيبر والتفسير الثقافي لمسألة التقدم والتنمية، المرجع السابق.

²⁻ ماكس ڤيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسماُلية، ترجمة: محمد علي مقلد، مراجعة: جورج أبو صالح، نشر مركز الإنماء القومي لبنان، ص58.

³⁻ المرجع نفسه، ص67.

ومن الواضح أن ڤيبر لم يطرح رؤيته الدّاعية إلى حياديّة المعرفة واقتصارها على الفهم والتّفسير بصورة عبى عبثيّة، بل أسّس لرؤيته تاريخيّاً وصقلها فكريّاً بأدواته المنهجيّة التي تجلّت في نماذجه المثاليّة المقتصرة على فهم الظّواهر الاجتماعيّة، دون التّدخّل في مسارات حركتها مُقْصِياً إيّاها عن الغايات الإنسانيّة التي نجدها في تصوّرات ماركس. ومن البيّن الواضح أنّ فلسفة التّفسير تتناقض مع فلسفة التّغيير وتمضيان في تصوّرات ماركسين متناقضين، وإن "التقتا على المقدّمات فهما تفترقان في النّتائج، وذلك بسبب الافتراق في المنهج"1.

وبالعودة إلى ماركس نجد بأنّ تصوّره عن دور الفكر في التّغيير اتّخذ طابعاً إنسانيّاً، إذ رام تحقيق العدالة ورفع الظَّلم عن المقهورين والمعذّبين في الأرض، وإعادة الحقوق إلى الطّبقة العاملة المسلوبة والمهوبة. ومن أجل هذه الغاية كان يلحّ على توظيف كلّ أشكال الوعي الإنسانيّ على اكتشاف الحقيقة، ومن ثمّ توظيفها في إحداث التّغيير المنصف والعادل للطّبقات الاجتماعيّة المهيضة في التّاريخ. وهذا الأمر أعطى لنّظرية ماركس بعداً إنسانياً تفتقر إليه نظرية ماكس فيبر الذي تجاهل الأوضاع الاغتر ابيّة التي تعانها الطبقات العماليّة في ميدان العمل والإنتاج، ولم يلق بالاً لأوضاعها الإنسانيّة المتردّية. وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن ماركس قد منح المعرفة صبغة إنسانيّة لا نجدها في التّفكير البرجوازيّ عند ماكس ڤيبر الذي كرّس نفسه دفاعاً عن مصالح الطّبقة البرجوازيّة. وباختصار كان ماركس يبحث عن الحقيقة ليجعلها منصّة الانطلاق بحثاً عن الإنصاف والعدالة وحقوق الإنسان، ومن أجل هذه الغاية كرّس علم الاقتصاد والتّاريخ والمادّيّة التّاريخيّة وجعل من هذه العلوم قوّة تتّجه نحو الثّورة والتّغيير بحثاً عن العدالة الإنسانيّة المفقودة. وعلى النّقيض من ذلك، رسّخ ڤيبر نموذجاً فكريّاً جامداً، ونظريّة معرفيّة، سعياً إلى فهم الظّواهر التّاريخيّة بوصفها ظواهر منفردة متفرّدة لا تتكرّر في التّاريخ أو المجتمع، وصنع لها نماذج فكريّة أراد أن تكون قادرة على ضبطها منهجيّاً واستكشاف مضامينها والغوص في أعماقها مرّة واحدة في تاريخ لا يعرف التّكرار. ومع ذلك يمكن القول إنّ نظريّة ڤيبر لم تكن حياديّة إذا كان يتوخّى إبقاء الوظيفة المعرفيّة للعالم خارج سياقها التّاريخيّ، حفاظاً على أوضاع الطبقة البرجوازيّة ومصالحها، ومن الواضح أنّه كان يسعى إلى إبطال مقولة ماركس حول دور المعرفة في التّغيير الاجتماعيّ.

وهنا يتّفق ڤيبر مع ماركس بأن الرّأسماليّة لا يمكنها أن تكون النّظام الأمثل، ورغم ذلك رفض أن تكون الثّورة البروليتاريّة ممكنة وأن تكون الحلّ المناسب لتجاوز سلبيّات النّظام الرّأسماليّ. ورغم أهمّيّة هذا الأمر لم يقدّم أيّ اقتراح أو تصوّر حول البديل الممكن للرّأسماليّة ذات الصّندوق الحديديّ الذي ابتلع الإنسان والمجتمع في بعد استهلاكيّ إنتاجيّ واحد.

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، ترجمة: محمود على مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص12.

10-3-10 المادية التّاريخية إلى المثالية المادية:

رفض ماكس فيبر فكرة التطور الماركسية وما تنطوي عليه من قوانين جدليّة. ومن هذا المنطلق، رفض أوّليّة العامل الاقتصاديّ وأعطى هذه الأولويّة للأفكار والتّصوّرات. وفي سياق ذلك تفادى أحاديّة التّفسير الماديّ للتّاريخ وانطلق يحفر وينقّب في تأثير العوامل الثّقافيّة في نموّ الاقتصاد وتطوّر الرّأسماليّة، "واضعاً نفسه لا في مواجهة ماركس فحسب، بل في مواجهة الماركسيّة "المبتذلة" التي أكّدت أوّليّة العامل الاقتصاديّ بصورة ميكانيكيّة أ

عُرف عن ماركس رفضه أن يكون الوعي المجرّد قادراً على توليد الوجود المادّيّ الاقتصاديّ والاجتماعيّ على نحو كليّ وشموليّ وقد أكّد هذا الأمر في كتابه (نقد نظريّة الحقّ عند هيغل) وأقرّ أنّ الوعي لا يفسّر دوافع الإنسان. لأنّها تتحدّد جوهريّاً بالواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ، "ورفض في الوقت نفسه نظريّات الهيغليّين الشّباب في كتابه (أطروحات حول فيورباخ) لأنّها اكتفت بتفسير العالم، دون تقديم أطروحات عمليّة لتغييره" وعلى خلاف ذلك، يرى ماكس ڤيبر أنّه لا يمكن تفسير سلوك الإنسان ودوافعه بوصفهما انعكاساً آليّاً للعوامل الاقتصادية إذ يعتقد أيضاً بأهميّة المتغيّرات الثّقافيّة ويعطي أهميّة كبيرة للعقائد والقيم والتّقاليد في إحداث عمليّة التّغيير الاقتصاديّ والاجتماعيّ. وعارض في كتابه (الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة) أولويّة الاقتصاد الماركسيّة في تشكيل الوعي والتّكوينات الثّقافيّة الفوقيّة. وذهب إلى أبعد من ذلك مؤكّداً أنّ وجود الطّبقات الاجتماعيّة ليس نتاجاً لعلاقات التّملك وأنماط الإنتاج الاقتصادي، في في رأيه تشكّلت في رحم اقتصاديّات السّوقو في بوتقة حركته وآليّات اشتغاله. وعلى هذا الأساس يهاجم في في رأيه تشكّلت في رحم اقتصاديّات السّوقو في بوتقة حركته وآليّات اشتغاله. وعلى هذا الأساس يهاجم الماديّة التاريخيّة قائلا: "وحدها الماديّة التاريخيّة السّاذجة من تفترض أنّ الأفكار هي انعكاس للظّروف الاقتصاديّة." وفي سياق آخر يقول "إنّ ما يُعرف به " النّصوُّر المادّيّ للتّاريخ" -في معناه القديم البدائيّ الاقتصاديّة." وفي سياق آخر يقول "إنّ ما يُعرف به " النّصوُّر المادّيّ للتّاريخ" -في معناه القديم البدائيّ والعبقريّ كما ورد في "البيان الشّيوعيّ" - لا يُمارسُ في أيّامنا أيّ ضغطٍ إلاّ على بعض الجَهاة والهُواة " ق.

ويشير ريمون آرون في كتابه" مراحل الفكر السوسيولوجي" إلى أنّ ماكس ڤيبر في دراسته لدور الأخلاق البروتستانتيّة وتأثيرها في بزوغ النّظام الرّأسماليّ كان يربد أن يؤكّد أمراً في منتهى الأهمّية وهو أنّ سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يتحدّد بتصوّرهم عن العالم والوجود، وتُعدّ المعتقدات الدّينيّة وتفسيراتها أهمّ وأخطر التّصوّرات التي تؤثّر بشكل مباشر في السّلوك الاقتصاديّ والاجتماعيّ للأفراد 4. ومن الملاحظ أنّ ڤيبر لم يهتمّ بالجوانب الإيمانيّة للدّين، بل اكتفى بدراسة الجوانب الأخلاقيّة والقيميّة وتأثيرها في السّلوك الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، مرجع سابق، ص 13.

^{2 -} محرر، الصراع الفكري بين ماكس ڤيبر وكارل ماركس، عربي بوست، 2016/4/3. http://bitly.ws/zZcm

^{3 -} نقلا: عن براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.

^{4 -} المحفوظ السملالي، أصول النظام الرأسمالي بين ماكس ڤيبر وكارل ماركس، كوة، 21/ أغسطس 2022. http://bitly.ws/zZdg

10-3-10 تضاد الفكر والواقع:

لو أخدنا العلاقة بين الفكر والواقع لوجدنا أن الاختلاف بين الرّجلين كان في الأولويّة وليس في الأهمّيّة. فماركس لم يتجاهل أبداً دور البناء الفوقيّ في التّغيير وقد دعا على هذا الأساس الفلاسفة إلى تغيير العالم بدلاً من تفسيره. وكان دائماً يركّز على أهمّيّة البناء الفوقيّ في عمليّة التّحوّل الاجتماعيّ والسّياسيّ، وفي عمليّة الانتقال التّاريخيّ من تشكيلة اجتماعيّة إلى أخرى. ويمكن القول: إنّ ماركس أعطى للبنيان الفوقيّ أهميّة خطيرة في التّاريخ، وإن كان يعطي للبعد الاقتصاديّ للبنية المادّيّة في المجتمع الأولويّة الصّارخة في عمليّة التّغيير وفي عمليّة تشكّل الوعي. وقد تجلّى ذلك في مقولته المشهورة التي تنصّ على أنّ الوجود الاجتماعيّ هو التسانع الأساسي للوعي: ليس وعي النّاس هو الذي يحدّد وجودهم، بل وجودهم الاجتماعيّ هو الذي يحدّد وعهم "وهذا القول لا يتعارض مع أهمية البناء الفوقيّ في عملية التّغيير، وقد ركّز ماركس كثيراً على دور وعهم "وهذا القول لا يتعارض مع أهمية البناء الفوقيّ في عملية التّغيير، وقد ركّز ماركس كثيراً على دور الوعي في مراحل تاريخيّة من مثل: الثّورات الاجتماعيّة، والنّضال الطّبقيّ بوصفه حركةً واعيةً في التّاريخ الإنسانيّ.

وكذلك فإنّ ماكس ڤيبر، رغم تأكيده أولويّة الوعي في التّغيير الاقتصاديّ، لم ينكر أبداً أو يتنكّر لدور العامل الاقتصاديّ في التّغيير، وقد أكّد مراراً وتكرار أهمّيّة هذه العوامل ودورها الكبير في التّغيير الاجتماعيّ، ويتّضح ذلك في البحث الذي أجراه في عام 1869، فقد أكّد فيه دور العوامل الاقتصاديّة في سقوط الإمبراطوربّة الرّومانيّة، دون الإشارة إلى تأثير العوامل الثّقافيّة والرّوحيّة أ.

2-3-10 الدّين و الحضارة:

لا يخفى على أحد النّظرة السّلبية التي قدّمها ماركس عن الدّين في مختلف أعماله، إذ ينظر إليه بوصفه أيديولوجيا محايثة للهيمنة الطّبقيّة في التّاريخ، ولم يرّ فيه أكثر من أيديولوجيا طبقيّة في أبسط تجلّياته وأكثرها شمولاً. فهو مضادّ للحضارة وأيديولوجيا اغترابيّة، لذلك لا غرو أن يعرّفه بأنّه: "زفرة المضطهدين"، ومظهر من مظاهر استلاب الإنسان، وشكل من أشكال الأيديولوجيا التي تستخدمها السّلطة للسّيطرة على النّاس".

وعلى النقيض من ذلك، يرى فيبر أنّ الدّين يؤدّي دوراً صانعاً للحضارة ومبشّراً بالحداثة، وقد اتّضح هذا الأمر في دراسته حول الأخلاق البروتستانتيّة والرّوح الرأسماليّة. فقد أبرز كما أسلفنا أن المسيحيّة البروتستانتيّة وحدها هي الوعي الصّانع للعقلانيّة الرّأسماليّة، وهذا لا ينسحب على الأديان الأخرى مثلا لكونفوشيوسيّة والبوذيّة والهوديّة والإسلاميّة التي أدّت دوراً كابحاً لتقدّم النّظام الرّأسماليّ.

وتأسيساً على ما تقدم، يمكننا القول إنّ نظريّة ڤيبر تتفرّد بأنّها ركّزت على المكوّن الدّينيّ ودوره في عمليّتي التّغيير الاجتماعيّ. ومن هذا المنطلق وجّه نقده التّقويضيّ العنيف للتّصوّر الماركسيّ حول ثانويّة البناء الفوقيّ لأنّ الدّين، كما جرت الإشارة، يقع في عمق المكوّنات الثّقافيّة للبناء الفوقيّ الذي يتحدّد ويرتسم على مقاييس البنية التحتيّة. وفي سياق هذا التّضاد مع الفكرة الماركسيّة لجدل العلاقة بين البنائين الفوقيّ

¹- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص60.

والتّحيّ، يقدّم ڤيبر تفسيراً مغايراً، إذ يفسّر الانتقال من الإقطاع إلى الرّأسمال تفسيراً ثقافيّاً ودينيّاً 1. وقد عمل على تأسيس منهجيّة مبتكرة للبحث في العلاقة بين الدّين والحضارة، واستطاع أن يبرز أهميّة القيم والمفاهيم والتّصوّرات الدّينيّة في التّأثير في المجتمع وأن يرسم مسارين أساسيّين لتأثير الدّين في علاقته بالرّأسماليّة: يتمثل الأوّل في الكشف عن إسهام المسيحيّة البروتستانتيّة الكالفينيّة في تشكيل الرّأسماليّة الحديثة، ويتمثل الآخر في كشف القيم الدينيّة التي عطلت حركة التّقدّم الرّأسماليّ في الدّيانات الأخرى مثل الكونفوشيوسيّة والبوذيّة والإسلاميّة والهوديّة.

ومن الواضح أنّ فيبر وجد في دراسته هذه منطلقاً لرفض نظريّة ماركس المادّية الذي كان ينظر إلى البروتستانتيّة بوصفها أيديولوجيا الرّأسماليّة لأنّ الدّين ما هو إلا انعكاس للوضعيّة الاقتصاديّة في المجتمع. ومن جديد يعكس فيبر القضيّة ليعلن أنّ الأخلاق الدّينيّة -البروتستانتيّة الكالفينيّة هي التي شكّلت المقدّمات الأساسيّة والمنطلقات الحيويّة لنموالاقتصاد الرّأسمالي الحديث في الدّول الغربيّة 2. مفهوم الاغتراب:

شكّل مفهوم الاغتراب الرّأسماليّ أحد القضايا الجدليّة بين الرّجلين اللّذين يقرّان بالوضعيّة الاغترابيّة للرأسماليّة، لكنّهما يختلفان أيديولوجيّاً في تحديد ماهيّة هذا الاغتراب وخلفيّاته الوجوديّة. وعلى هذا النّحو يتَّفق الرِّجلان في نظرتهما إلى الرَّأسمالية بوصفها قوّةً استلابيّةً اغترابيّةً وأنّها تشكّل الوضعيّة القاتمة التي يفقد فيها الإنسان جوهره الإنسانيّ، وبختلفان في تحديد عوامل هذا الاغتراب. ففي الوقت الذي يرى ماركس أنّ الاغتراب الإنسانيّ الطّبقيّ ناجم عن الاستغلال الرّأسماليّ للعمّال والفقراء، ونتاج لفائض القيمة وعدم المساواة الاقتصاديّة بين الطّبقات الاجتماعيّة، يرى فيبرأنّ الاغتراب الاجتماعيّ ناجم بالضّرورة عن الإكراهات البيروقراطيّة للمجتمع الرّأسماليّ الذي يضع الإنسان في أقفاص العقلانيّة الفولاذيّة المغلقة التي تنمو فيها القواعد والقوانين والتّنظيمات البيروقراطيّة المتصلّبة، فتؤدّى إلى عزلة الإنسان وسقوطه في مستنقع الاغتراب والسّلبيّة، وبتحوّل في النّهاية إلى مجرّد آلة أو "عزقة" في دولاب الرّأسماليّة البيروقراطيّة الجبّارة. وفي أتّون هذا القفص الحديديّ البيروقراطيّ يتحوّل الإنسان إلى مجرّد رقم يمكن حسابه من غير قيمة إنسانيّة ومن غير احتساب لكيانه الإنسانيّ الأخلاقيّ. وببيّن ڤيبر أنّ "العمل ضمن المؤسّسات البيروقراطيّة الكبري سيؤدّي إلى تشعّب التّخصّصات وتكرار روتينيّ للعمل، وهذا النّظام الذي يسعى لوضع قواعد وتنظيم لكلّ شيء، سيحطّم الرّوح الإنسانيّة في نهاية الأمر"3. وباختصار الرّأسماليّة قوة جبّارة اغترابيّة بالنّسبة للرّجلين ولكنّ الاختلاف الجوهريّ في عوامل الاغتراب وليس في جوهره، فالاغتراب الماركسيّ استلاب لحقوق الإنسان واقتطاع الفائض من عمله واستغلاله من قبل الطبقة البرجوازيّة، بينما يرجع ڤيبر هذا الاغتراب إلى الممارسة البيروقراطيّة، وهو في ذلك يخفي أوجاع العمّال واستغلال الطّبقات المهيضة

¹- المحفوظ السملالي، أصول النظام الرأسمالي بين ماكس ڤيبر وكارل ماركس، مرجع سابق،

²⁻ انظر: براين تيرنر، علم الاجتماع والإسلام، دراسة نقدية لفكر ماكس ڤيبر، ترجمة أبي بكر باقادر، دار القلم، بيروت، ط1، 1987، ص25.

³⁻ طارق سرحان، العقلانية في علم الاجتماع، لارا بروف ، 17 أبريل 2021. http://bitly.ws/zFyv

في التّاريخ، فالبيروقراطيّة لا يمكنها أن تشكّل قوّة اغترابيّة لجميع الطّبقات، بل سيكون تأثيرها أكبر في الطّبقات المهيضة المستغلة تاريخيّاً. فالبيروقراطيّة لا يكون تأثيرها في ربّ العمل والعمّال متكافئاً على حدّ سواء، بل سيكون أشدّ إكراهاً وإيلاماً على العمّال منه على أرباب العمل الذين يصنعون هذا الرّوتين بأنفسهم للمحافظة على مصالحهم وامتيازاتهم.

ومن الواضح أنّ ماركس يرى أنّ الاغتراب يرتبط بالأوضاع الاقتصاديّة والصّراع الطّبقيّ، إذ يشكّل استئثار الرأسماليّين بالفائض المتراكم من الأرباح السّبب الرّئيس للغربة والعجز والاغتراب. وعلى خلاف هذه الرّؤية، يربط ڤيبر هذا الاغتراب بمفهوم "القفص الحديديّ" ويراه نتاج العقلنة البيروقراطيّة الطّاغية التي تجعل من تحقيق النّجاح الماديّ الهدف الأوّل والنّهائيّ للإنسان. في غمرة نظام بيروقراطيّ يتحوّل فيه النّاس إلى طاقة استهلاكيّة في دورة الإنتاج الرّأسماليّ، وذلك على نحو يفقدون فيه هويّتهم الإنسانيّة ويغرقون في أوضاعهم الاغترابيّة.

10-3-10 مفهوم الطّبقة:

يتفق الرّجلان على حضور الصّراع الطّبقيّ في قلب المجتمع الرّأسماليّ، لكبّهما يختلفان حول بنية هذا الصّراع وطبيعته ووظيفته. يقرّ ڤيبر كماركس بوجود الطّبقة والصّراع والطّبقيّ في النّظام الرّأسماليّ ويذهب إلى أنّ الطّبقة مجموعة من الأفراد الذين يأخذون مكانهم في موقع اقتصاديّ واجتماعيّ متماثل. وتمكّن الوضعيّة الطبقيّة لأفرادها مستوبات من الحياة تضمن لهم إشباع حاجاتهم الماديّة والثقافيّة والشّعور بالرّضي. وهذا التّصوّر لا يختلف في جوهره كثيراً عن التّصوّر الماركسيّ للطّبقة، بوصفها جماعة من النّاس تحتلّ موضعاً متماثلاً نسبيّاً في نظام الإنتاج الاجتماعيّ. ومع ذلك يؤخذ على ڤيبر أنّه حاول تسطيح هذا المفهوم وتفريغه من مضمونه الحيويّ الاقتصاديّ القائم على التّناقض الطّبقيّ. ويتجبّى هذا التسطيح في محاولة ڤيبر و أنصاره اعتماد مؤشّرات سطحيّة للدّلالة على الوضع الطّبقيّ مثل طريقة الأفراد في الاستهلاك الثّقافي والسّلوك الأخلاقيّ وغير ذلك من المؤشّرات التي تخرج عن جوهر التّصنيف الطّبقيّ. وقد بالغ بعض أنصار ڤيبر في تسخيف مؤشّرات الانتماء الطّبقيّ، كما فعل تلميذه لوجد وارن (L. Wamer) الذي جعل من شكل الحذاء الذي يرتديه الفرد، ولونه مؤشّراً من مؤشّرات الانتماء الطّبقيّ. لكنّ المهمّ في الأمر كما يذكر عبد الباسط عبد المعطي أنّ ڤيبريتّفق مع ماركس جوهريّاً حول أهميّة "الاشتراك في المصالح كأساس لوجود الطّبقة، وقد وسّع من هذه المصالح لتشمل أشياءً كثيرةً، المُمّية الأصول الرّأسماليّة"!

وإذا كان الرّجلان يقرّان بوجود الصّراع الطّبقيّ ويريان أنّه مكوّن أساسيّ من مكوّنات الرّأسماليّة فإنّهما يختلفان جذريّاً في موقفهما من الصّراع الطّبقيّ؛ يرى ماركس أنّ الصّراع الطّبقيّ هو المحرّك الأساسيّ في التّاريخ، بينما يخالفه ماكس ڤيبر تماماً، ويرى أنّ هذا الصّراع صفة لازمة في الرّأسماليّة من أجل استمرارها، وهو يشكّل ديناميّة داخليّة للمحافظة على وظائفها الدّاخليّة وأنّه لا يمكن له، بأيّ حال من الأحوال، أن

(60)

¹- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص60.

يقود إلى التّغيير الذي يراه ماركس. ويذهب "ألبرت سالون A. Salomon" إلى أنّ فيبر اجتهد في رسم إمكانيّات حلّ الصّراع، وأنكر قدراته الدّافعة نحو التّغير، فقد رأى أنّ الصّراع يمكن أن يتطوّر تطوّراً جدليّاً ديناميّاً، بمعنى أنّ وجوده لا يحول دون بقاء المجتمع واستمراره، فتغيّره تماماً أمر لا يحدث إلّا في حالات استثنائيّة"1.

نخلص في النّهاية إلى أنّ سوسيولوجيّة ماكس فيبر تجد قوّتها النّظريّة في البعد العقديّ الدّينيّ على غرار التّفسيرات الميكانيكيّة الماركسيّة، المؤطّرة بقوانين دياليكتيكيّة حتميّة ونظرتها السّببيّة للوجود والكون والاقتصاد وقوانينه².

10-4-تدوير الزّوايا:

رغم احتدام الصراع بين الاتجاهين الماركسيّ والقيبريّ ووضوح التّناقض الشّديد في مختلف التّوجّهات والاتّجاهات، فإنّ الباحث المدقّق لا يعدم الوسيلة في ملاحظة وجود كثير من النّقاط المشتركة من حيث الجوهر والمختلفة من حيث المنهج والشّكل والمظهر. وفي هذا السّياق، يرى لوران فلوري أنّ التّباين والتّناقض بين ماركس وماكس ڤيبر لم يكن قطعيّاً ونهائيّاً بل كانا "متّفقين حول كثير من الأفكار المتعلّقة بالرأسماليّة وآليّاتها وعوامل نشوئها واشتغالها، ولا سيّما حول دور الملكيّة الخاصّة والتّشيّؤ والتّفسير الاقتصاديّ للأخلاق الدّينيّة، ودور المصالح الماديّة والفكريّة في تحديد سلوك البشر... إلخ. لكنّهما كانا متناقضين في المنهج تناقضاً كليّاً أي متناقضين في توظيف هذه الأفكار "3.

ومن المناسب في هذا السياق أن يقال إنّ نظريّتي ماكس ڤيبر وماركس حملتا كثيراً من التّفسيرات الحدّيّة القطعيّة التي يرفضها كلّ منهما، فعلى سبيل المثال غالباً ما يشار إلى أنّ ماركس قد أعلن أنّ البناء الفوقي يتحدّد بصورة انعكاسية آليّة عن البناء التّحيّ. وفي هذا القول مغالطة كبيرة؛ لأنّ ماركس وإنجلز أكّدا مراراً وجود علاقة جدليّة بين الجانبين، وأنّ البناء الفوقيّ يؤثّر كثيرا في البنية التّحتيّة، ولا سيّما في مراحل التّغيير والتّثوير، ومن هنا فإنّ القول بالانعكاس الآليّ للبناء الفوقيّ بوصفه صورةً منعكسةً آليّة عن البناء التّحييّ مقولة لا تحتمل الصّواب في الفكر الماركسيّ.

وكذلك الأمر بالنّسبة لڤيبر، فإنّه لم يذهب إلى قطعيّة أن تكون الأفكار الدّينيّة سبباً وحيداً لانتصار الرأسماليّة، بل كان يؤكّد أنّها من أهمّ العوامل، والدّليل وجود أشكال قديمة من الرّأسماليّة لا علاقة للدّين في نشأتها. وهذا يعني أنّ نشأة الرّأسماليّة لا تُعزى بالكامل إلى الأخلاق البروتستانتيّة، بل إلى عدّة عوامل مادّيّة ومعنويّة. وعلى هذا الأساس يعلن ماكس ڤيبر أنّه لا يسعى لاستبدال التّفسير المادّيّ للتّاريخ بتفسير مثاليّ آخر، ولا يريد أن يقع في هذه المصيدة الفكريّة الأحاديّة، ويعلن أيضا أنّ البروتستانتيّة ليست علّة كاملة لظهور الرّأسماليّة، يقرّر في المقابل بوجود علاقة جدليّة تفاعليّة بين الأخلاق البروتستانتيّة

.

¹⁻ عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص96.

²⁻ المحفوظ السملالي، أصول النظام الرأسمالي بين ماكس ڤيبر وكارل ماركس، كوة، 21/ أغسطس 2022. http://bitly.ws/zZdg

³⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، ت: محمود علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص11.

والرّأسماليّة، ويؤكّد أنّ التّعاليم البروتستانتيّة في العقيدة الكالفينيّة الدّاعية إلى العمل والكسب كانت سبباً أساسيّاً في تطوّر الرّأسماليّة بوصفها منظومة اقتصاديّة نشطة، ولم تكن عِلّتها الوحيدة. وهذا يعني أنّ الكالفينيّة لم تكن سبباً كافياً لنشوئها، بل كانت أحد أهمّ أسباب نشوء الرّأسماليّة الغربيّة بصورتها العقلانيّة. وبعبارة أخرى "لم يَرْم إلى استبدال التّفسير المادّيّ للرّأسماليّة الحديثة -أو للحضارة والتّاريخ عموماً- بآخرَ روحانيّ لا يقلّ عنه أحاديّة "1. ولذلك نراه يتساءل بصيغة الإنكار: "هل من الضّروري الاحتجاجُ على أنّ هدفنا ليس أبداً استبدال تحليلِ سببيّ "مادّيّ" حصراً بتأويلِ رُوحانيّ للحضارة والتّاريخ، تأويل لن يكون إلّا كغيره آحاديّ الجانب؟! فإنّ كُلاً منهما [التّأويلين] يُسيء إلى الحقيقة التّاريخيّة"2. وفي هذا السّياق أيضاً يقول:" لقد حاولنا ببساطةٍ أنْ نُحدّد الحِصّة التي تعود إلى العوامل الدّينيّة، مِن بين العوامل العديدة المتارخيّة المعقّدة التي أسهمت في تطوّر حضارتنا الحديثة الموجّهة خصيصاً نحو الحياة الدّنيا"3.

يرى كثير من المفكّرين اليوم أنّ ماكس ڤيبر لم "يسقط في القول بحتميّة العلاقة بين الدّين والنّظام المجتمعيّ، بل يرى أنّ العلاقة بينهما هي علاقة انسجام وتناغم لا علاقة سببيّة حتميّة "4. والقول الفصل في ذلك: "إنّ ماكس ڤيبر حينما بحث عن الوعي والرّوح الرّأسماليّين، وعن سبب اختصاصه بالدّول الأوربيّة وجده ثاوياً في النّزعة البروتستانتيّة الكالفينيّة تحديداً، وهي التي كان لها الدّور الحاسم في تحفيز الإنسان وحثّه على العمل، فجعلت منه أمراً واجباً، بل طقساً تعبّديّاً مقدّساً يتقرّب به الفرد من الله إلى درجة أنّها اشترطت الفوز بالآخرة بالنّجاح الاقتصاديّ في الدّنيا5.

ويمكننا القول في هذا السياق، إن ماكس فيبر أراد الهروب من الماركسيّة لكنّه سقط في دوّامتها، و أقلّ ما يمكن القول إنّه كان ماركسيّاً انقلابيّاً، وقد لا يكون غربباً القول: إنّه لولا ماركس لما كان ماكس فيبر؛ لأنّ الماركسيّة شكّلت محور حياته وتفكيره، رغم رغبته في الانفصال والمشاكسة والانقلاب، وهذا لم يزده إلّا اندماجاً في الماركسيّة والتّلاحم مع أفكارها، وإن يكن بطريقة المعاكسة والتّناقض. وفي هذا الأمر يقول ارفنج زاتيلن " إنّ ماركس كان بالنّسبة «لڤيبر» وغيره من الباحثين شبحاً ظلّوا يحاكونه ويحاجّونه، وكان مصدر إلهامهم سواء أقلّدوه أم نقدوه، وهناك آراء غير قليلة ترى أنّ «ڤيبر» بدأ ماركسيّاً، لكن ذلك لم يسعفه ولم يضعه في مكانته التي تطلع إليها، فانتهى إلى عكس ما بدأ، فكان له في الأخير ما أراد من شهرة "6. ويمكن القول في نهاية هذه الدّراسة: إنّ الجهود الفكريّة الكبيرة التي قدّمها ڤيبر للفكر الإنسانيّ تأخذ صورة انقلاب على النّظرية الماركسيّة وتصوّراتها. وهذا الانقلاب بذاته كان على درجة كبيرة من الخصوبة الهائلة التي أضافت وأثّرت في الفكر الإنسانيّ المعاصر.

¹⁻ براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.

²⁻ المرجع نفسه.

³⁻ نقلا عن: المرجع نفسه.

⁴⁻ المحفوظ السملالي، أصول النظام الرأسمالي بين ماكس ڤيبر وكارل ماركس، مرجع سابق.

⁵⁻ المرجع نفسه.

⁶⁻ عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، عالم المعرفة، العدد

^{44،} الكويت، 1981. ص96.

11- رؤية نقديّة لماكس ڤيبر وأعماله:

شكّلت أعمال ماكس ڤيبر دربئة للجدل والنقد العلميّين على مدى القرن الماضي، وما زالت نظريّته السّوسيولوجية تشكّل موضوعاً ساخناً للنقد المعرفيّ الذي لم يتوقّف حتى اليوم. ومن الواضح أنّ التّعقيد المعرفيّ الكبير في نظريّاته والتّنوع الفكريّ لأعماله واشتغاله في مجالات فكريّة مختلفة، جعل من مهمّة النقد العلميّ مهمّة صعبة ومعقّدة أمام الباحثين والمفكّرين. وقد زاد من هذه الصّعوبة الأسلوب اللّغويّ المجازيّ المضمّخ بالطّابع الرّمزيّ والمتشبّع بالطّابع الفلسفيّ الذي اعتمده ڤيبر في كتابة أعماله، ويضاف إلى ذلك صعوبة الترجمة وتعقيداتها من الألمانيّة إلى اللّغات الأخرى، وفوق ذلك كلّه أنّ أعماله لم تكن قد اكتملت قبل وفاته وقد قامت زوجته وبعض من أسرته بجمع أعماله وطباعتها ونشرها بعد وفاته. وهذه الحيثيّات كان لها دور كبير في التّنافر النّقديّ الذي وجّه إلى ماكس ڤيبر ونظريّاته،، فقد تأرجحت الموجات النّقديّة التي تعرّضت لها أعماله إلى تدرّجات تبدأ من الهجوم الأيديولوجيّ العنيف ضدّ ڤيبر وأفكاره، ولا سيّما من قبل الماركسيّين السّطحيّين لتنتهي إلى التّمجيد الرّسوليّ بأفكاره وتصوّراته، وزاد من حدّة هذا النّقد وتطرّفه الموقف الأيديولوجيّ الصرّبح لماكس ڤيبر الذي أعلن فيه وفاءه وولاءه المطلق للبرجوازيّة الرّأسماليّة في أوروبا الموقف الأيديولوجيّ الصرّبح لماكس ڤيبر الذي أعلن فيه وفاءه وولاءه المطلق للبرجوازيّة الرّأسماليّة في أوروبا وأمريكا، وجعل من نفسه مدافعاً شرساً عن مصالح الطّبقات الرّأسماليّة دون سابق إنذار.

ومن أكثر الأمور خطورة في عمليّة النقد الموجّهة إلى نظريّات ڤيبر تتمثّل في أنّ معظم الباحثين والدّارسين كانوا قد تناولوه دائماً في معترك المقارنة مع الأنداد والخصوم من المفكّرين العمالقة، أمثال ماركس ودوركهايم. وهذا هو الأمر الذي جعل من النقد فيه كثير من التّحيّزات العلميّة والفكريّة. وهذا هو الأمر الذي أشار إليه لوران فلوري بقوله: "إنّ ماكس ڤيبر لم يُقرأ أبداً لذاته: جرت قراءته لفترة طويلة بصفته نقيضاً لدوركهايم أو نقيضاً لماركس أو نقيضاً لهيغل (Hegel)، أو نقيضاً لبوبر (Popper) وجرى توظيفه من قبل علماء اجتماع خلال عملهم على بلورة نظريّاتهم الخاصّة". وقد شكّلت هذه الوضعيّة معضلة معرفيّة حقيقة حجبت كثيراً من الزّوايا القضايا المهمّة في تفكير ڤيبر وفي نظريّاته السّوسيولوجيّة المهمّة.

ومن الملاحظات النقدية التي وجّهت إلى قيبر أنّه بالغ كثيراً في النّظر إلى الأخلاق البروتستانتية" بوصفها المحرّك الأساس لِنُموّ النّظام الرّأسماليّ، ذاهِلاً عن أنّ ثمّة عواملَ أخرى ساعدتْ، إن لم تكن قد حرّكت عجلة نُموّ الرّأسماليّة مثل: انفصال العمل اليدويّ عن العمل الحِرفيّ، وتدفُّق المعادن والموادّ الأوّليّة والنّقود، وتطوُّر النّظام المصرفيّ وما رافق ذلك من تطوُّراتٍ علميّةٍ وثقافيّة وتكنولوجيّة... إلخ" 2- وقد ذهب كثير من النّقاد إلى أنّ الذّهنيّة الاقتصاديّة الإيجابيّة للعمل والإنتاج واحتساب الزّمن والميل إلى الرّبح والمحافظة على المال كانت قد ظهرت قبل ظهور الذّهنيّة البروتستانتيّة الكالفينيّة، وهي الذّهنيّة التي يعدّها قيبر أصلاً في نشأة الرأسماليّة. وقد يكون من الممكن جدّاً أن تكون الذّهنيّة البروتستانتيّة قد نشأت تحت تأثير الذّهنية الاقتصاديّة للرأسماليّة.

(63)

¹⁻ لوران فلوري، ماكس ڤيبر، ترجمة : محمود علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص21. 2- براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مجلة حكمة، http://bitly.ws/zoxK. 2021/6/21

وقد أخذ كثير من النّقاد على ماكس ڤيبر نزعته المثاليّة المفرطة التي تجلّت في مقولاته حول الأخلاق البروتستانتيّة، وهي نمط مثاليّ يعود في أصله إلى مثاليّة هيغل، الذي كان يرى "أنّ لكلّ حقبةٍ تاريخيّةٍ رُوحَها الخاصَّة بها، والذي يشتمل على مجموعةٍ من النّظرات النّفسيّة" وهو الأمر الذي استلهمه ڤيبر فجعل من الأخلاق البروتستانتيّة وذهنيّها الاقتصاديّة روحاً محرّكةً للرّأسماليّة العقلانيّة الجديدة.

يعيب كثير من النّقاد على فيبر نظرته العنصريّة التي تقول بالتّفوّق الغربيّ في مجال العقل والعقلانيّة، وقد أشار في أكثر من موقع، في مختلف كتاباته، إلى تفرّد العقلانيّة الأوروبيّة وتَميُّزها عن باقي الشّعوب والأمم، ولم يخف أبداً تعصّبه الواضح للحضارة الغربيّة، وتمجيده للعنصر الأوروبيّ، وذَهابُه إلى الاعتقاد بأنّ الغرب يتميّز بنمط من العقلانيّة التي يتفرّد بها عن مختلف شعوب العالم 2. يرى فيبر في هذا السّياق أنّ العلم بصيغته الحديثة نشأ في البلدان الأوروبية دون غيرها، ولم ينكر في السّياق ذاته وجود الحكمة الفلسفيّة واللاّهوتيّة في بعض الثّقافات الأخرى، كما هو الحال في الثّقافة الهنديّة والصينيّة والفارسيّة. ومن يعتدل في القول ليرى أنّ المعرفة في هذه البلدان لم تتوّج بالعلوم البرهانيّة، من مثل: الرّاضيّات، والعلوم، العقليّة ولم تقم على تجارب علميّة.

ويشار أيضاً إلى أنّ رجال الدين الكاثوليك قد هاجموا ڤيبر بسبب أطروحاته التي يصف بها الكاثوليكيّة بمذهب الجمود والتّطيّر والسّكون والتّواكل والانفصال عن العقلانيّة. وفي السّياق نفسه هاجمته الكنائسُ البروتستانتية، ولا سيّما اللوثرية الذين رفضوا أطروحته التي تُمجّد التقويّين والكالفينيّين، ووجدوا في هذا الأمر نوعاً من التّجني والظّلم الذي نال من دورهم في عمليّة الإصلاح الدّينيّ والسّياسيّ.

ويشير كثير من النقاد إلى شطحات فيبر المثاليّة التي ركّزت على إبراز أهمّيّة الجوانب الذّاتيّة في الحياة الاجتماعيّة التي تتجلّى في دوافع النّاس السّيكولوجيّة ونزعاتهم الفرديّة إلى درجة اقترب فها من الإيمان بالنزعة السيكولوجية في علم الاجتماع أو في دراسة الظّواهر الاجتماعيّة. كما يؤاخذ على المبالغة في التّركيز على دور الفرد في التّاريخ، وهو الدّور الذي يتجلّى في دور الزّعيم الكارزميّ الملهم الذي قد يسجّل حركة في التّاريخ ويحدث تغييراً في مساراته.

ويسجّل على فيبر أنّه قد أفرط وبالغ في تقدير أهمّيّة القيم الدّينيّة والثّقافيّة في تفسير حركة التّاريخ، وقد رفض في مسار ذلك وقد دفعه هذا التّأكيد إلى التّنكّر للقانونيّات التي تحكم حركة المجتمع والتّاريخ، وقد رفض في مسار ذلك أن يكون للمجتمع قوانين تسيّره وتحكمه، وأنّ الظّواهر الاجتماعيّة ظواهر تاريخيّة متفرّد لا يمكن أن تتكرّر مرّتين. ومن الواضح أنّه رفض وجود تحليل علميّ قانونيّ مطلق للثّقافة أو للظّواهر الاجتماعيّة. وكان لموقفه هذا أثر كبير في نزع الموضوعيّة عن العلوم الإنسانيّة بما فيها علم الاجتماع، واستطاع أن يولّد تيّاراً سوسيولوجيّاً يقوم على الآراء والنّزعات الفرديّة، وكان لهذا أثر كبير في عمليّة تطوّر علم الاجتماع على أسس موضوعيّة.

2- ماكس ڤيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، مرجع سابق، ص14.

(64)

¹⁻ براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.

ومن أهم الانتقادات التي وجّهت إلى نتائج ڤيبر في "الأخلاق البروتستانتيّة والرّوح الرّأسماليّة" أنّه درس مرحلة محدّدة في تاريخ أوروبا، ولم يدرج هذه الظّاهرة التي تجلّت في مناطق أوروبيّة كثيرة في إيطاليا وفي مختلف أنحاء العالم.

يعتقد كثير من النّقاد أنّ سوسيولوجيا ڤيبر تدور في فلك القيم الفرديّة والذّاتيّة، وأنّ السّوسيولوجيا التي قدّمها تتحرّك جوهريّاً في الأنماط الذّاتيّة، وتدور حول القيم الفرديّة الغارقة في مستنقع الذّاتيّة التي تفقد العلم موضوعيّته واستقلاله. ويرى كثير من النّقاد أنّ هذه النّزعة الفرديّة الذّاتيّة المتشبّعة بالطّابع السّيكولوجيّ قد فعلت فعلها في الدّفاع عن المشروع الرّأسماليّ، وعن أيديولوجيا الطّبقات البرجوازيّة الضّخمة. الطّبقات العماليّة التي تتعرّض لأقصى أشكال القهر والاستغلال في الماكينة البرجوازيّة الضّخمة.

ومن المآخذ الكبري على ماكس ڤيبر أنّه انحاز كلّيّاً على نحو أيديولوجيّ، دون سابق إنذار ودون خجل أو وجل، مع الطّبقة الرّأسماليّة ومصالحها وامتيازاتها ضدّ الطّبقات العماليّة والفقيرة، ولم يتفاعل أبداً مع هموم الطّبقات الفقيرة المسحوقة والمغلوبة على أمرها وشجونها، جاعلاً من نفسه وحشاً أيديولوجياً لا يرحم الفقراء ومدافعاً عن الأغنياء ومصالحهم وقدرتهم على سحق المقهورين والمظلومين، وهنا يبرز الطّابع الإنسانيّ لكارل ماركس الذي كرّس حياته وفكره من أجل العدالة والحقّ دفاعاً عن مظلوميّة الطّبقات المهيضة. وبالمقارنة فإنّ الطّابع الأيديولوجيّ الوحشيّ قد غلب في فكر ماكس ڤيبر، إذ لم يتطرّق يوماً إلى آلام المعذّبين وشجونهم وهمومهم، وتجاهل حقوقهم منافحاً عن الظّالمين ومنتصراً للقاهرين. وباختصار، أعلن ڤيبر التزامه الأيديولوجيّ بـ النّظام الرّأسماليّ وبالغ في تمجيده واصفاً إيّاه بأنّه "النّظام الأمثل للبشريّة الذي يجب الحفاظ عليه وادخال التّحسينات والتّعديلات عليه وبرتبط بذلك نزعة عنصريّة واضحة تتمثّل في الدّعوة إلى سيطرة ألمانيا على غيرها من البلدان"1. وما لا شكّ فيه أنّ هذه الموقف الأيديولوجيّ قد أساء كثيراً إلى ماكس ڤيبر وقلّل بشكل كبير من موضوعيّته العلميّة. وبؤاخذ عليه في هذا السّياق التّركيز الشّديد على نظريّة كارل ماركس الذي شكّل مدخله المنهجيّ إلى الشّهرة، وربّما قد بالغ كثيراً في الاشتباك مع شبح ماركس ومعارضة أفكاره إلى الحدّ الذي دفع كثيراً من النّقاد إلى القول إنّ ماكس ڤيبر ما كان له أنّ يوجد لولا شبح ماركس. وقد وجد ڤيبر من السّهولة بمكان أن يأخذ أنموذجاً فكربّاً عظيماً مثلا لنّموذج الماركسيّ وأن يبني لنظريّته نموذجاً نقيضاً له، دون أن يخرج عن دائرة هذا البناء الفكريّ الانعكاسيّ. ولا يختلف حال ڤيبر في علاقته بماركس عن حال المهندس الذي يعتمد نموذجاً لبناء يرسمه على شكل مختلف أو مناقض له بقدر الإمكان. ومع أهمّيّة الجهد الذي بذله في ڤيبر في إظهار نفسه نقيضاً لماركس، إلا أنه قد أُكره على تبنّى معظم أفكاره وتصوّراته ومقولاته بحكم النّمذجة التي لم يستطع الخروج عنها.

ومن النّقود التي يمكن أن نوجهها إلى ڤيبر تتعلّق بمنهجيّة الأنموذج المثاليّ الذي بدا لنا كأنّه نتاج بحثيّ أكثر منه قوّة منهجيّة للدّراسة العلميّة، وهو في النّهاية أشبه ما يكون بالتّعريفات الإجرائيّة التي نجدها في الدّراسات الأمبيريقية الاجتماعيّة التي تُدرس الظّواهر الاجتماعيّة في ضوئها. فلو أخذنا مثلاً النّمط

¹⁻ سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية، القاهرة: دار الهاني للطباعة والنشر، 2006، ص127.

البير وقراطيّ، فإنّ كلّ ما جاء فيه لا يعدو أن يكون مجرّد تحديدات إداريّة واضحة للعيان، ولا تستدعي أيّ لبس. وبمكن الاطّلاع على هذا الأنموذج في الأنظمة الدّاخلية للإدارات البيروقراطيّة؛ أي في اللّوائح التّنظيميّة التي تحدّدها الإدارة في أيّ مؤسّسة بيروقراطيّة حكوميّة. وهذا ينسحب على عدد كبير من الأنماط المثاليّة التي لا تقدّم لنا كثيراً في مجال البحث العلميّ. هذا كلّه عدا أنّ ڤيبر لم يقدّم لنا أيّ أنموذج تطبيقيّ على دراسة ميدانيّة واقعيّة كي ندرك كيف تجري عمليّة استنباط النّماذج المثاليّة التي برأينا لا تعدو أن تكون تعريفات إجرائيّة مطوّلة ومتشعّبة تعبّر عن واقع واضح دون لبس أو غموض. وبمكن أيضاً توجيه النّقد إلى الفعاليّة المتعلّقة بالنّمط المثاليّ، فلو أخذنا على سبيل المثال "النّموذج المثاليّ للفعل الاجتماعيّ" الذي يتضمّن أربعة مستوبات (عقلانيّ، وعاطفيّ، وأخلاقيّ تقليديّ) وحاولنا تطبيقه على استكشاف الجوانب العقلانيّة وغير العقلانيّة في سلوك فرد مقبل على الزّواج، فكيف نستطيع أن نميّز في طبقات هذا الفعل ونيّات الفاعل المقدم على الزّواج، ضمن سياق أربعة تصنيفات في الفعل (عقلانيّة، وعاطفيّة، أو أخلاقيّة، أو تقليديّة)؟!، والسّؤال كيف يمكن تطبيق النّموذج المثاليّ للفعل الاجتماعيّ في هذا المثال وتحديد نوايا الفاعل (المقدم على الزّواج) ؟! أي كيف نعرف فيما إذا كان المقدم على الزواج يقدم بدافع المصلحة، أم الحبّ، أم التّقاليد، أم الأخلاق؟ وكيف نحسب مستوبات التّداخل بين هذه المستوبات الأربعة للفعل الاجتماعيّ. وبالمقابل في سياق الرّد على منهجيّة النّمط المثاليّ عند ڤيبر، بيّنت السّوسيولوجيا التّقليديّة القائمة على الموضوعيّة أنّه يمكننا من خلال أساليب منهجيّة كثيرة إدراك حتى أعمق أعماق التّفكير الباطنيّ عند الإنسان، حتى أنّ الأدوات المنهجيّة مثل: الاستبيانات، وأساليب الملاحظة وبطاقاتها، والأسئلة الإسقاطيّة اللاّشعوريّة يمكنها أن تصل إلى أعمق أفكار الإنسان في كثير من القضايا السّيكولوجيّة الشّائكة. وقد تقدّمت العلوم السّلوكيّة في هذا الأمر إلى درجة مذهلة، وما علينا إلّا مراقبة استطلاعات الرّأي العامّ التي تستطيع أحياناً وعلى الهواء مباشرة تحديد نسب نجاح المرشّحين في انتخابات سياسيّة بدقّة متناهية. وهذا دليل على أنّ المناهج السّوسيولوجيّة والسّيكولوجيّة قد تقدّمت كثيراً، واستطاعت أن تحقّق الغايات السّوسيولوجيّة المطلوبة بدقّة متناهية. ورغم أهمّيّة الجديد في هذا الأمر، فإنّ سوسيولوجيا دوركهايم كانت قد برهنت على فعاليّة المناهج السّوسيولوجيّة التّقليديّة، ومثال ذلك دراسة دوركهايم عن الانتحار قى فرنسا، التى قدّمت لنا نتائج مهرة عن ظاهرة شديدة التّعقيد سيكولوجيّاً واجتماعيّاً.

ويمكننا القول في هذا السّياق إنّ النّموذج المثاليّ ناتج دراسة قبل أن يكون وسيلة منهجيّة للدّراسة، فعندما نقيم تصوّراً ذهنيّاً من المفاهيم المتكاملة عن الحرب، يمكننا فهم الحرب قبل أن ندرسها في الواقع. وهذا يعني، في رأينا، أنّ الباحث قد فهم الحرب وعلاماتها ودلالاتها قبل أن يدرسها فعليّاً، وكلّ ما في الأمر أنّه عندما يدرس حرباً، فإنّه قد يكتشف انحيازات صورتها عن النّموذج الذي رسمه في وعيه من قبل.

ويمكن القول في النّهاية إنّ ماكس ڤيبر يعدّ من أكثر المفكّرين إثارة للخلاف والجدل في القرن العشرين. وقد اختلفت فيه الرّؤى والمواقف والتّقييمات، وقد قيل عنه كثيرٌ من التّناقضات التي تتعلّق بأسلوبه الرّجراج، وطرائقه المحيّرة ومناوراته في الكتابة الرّشيقة الزّلقة، التي تظهر نمطاً من الفكر الدّيناميّ العميق المفتوح على كلّ احتمالات الاستدارة والاحتواء والتّجاوز الذي يقع في غمار رؤية أيديولوجيّة صريحة أحياناً،

وغائرة في كثير من الأحيان. وهو ما جعل من شخصه وأفكاره محوراً للتّناقضات في الرّؤي والتّقييمات الفكريّة، وقد ذهب "بعض المفكّرين إلى وصفه ماركسيّاً مرتدّاً، أو ماركسيّاً بورجوازيّاً، وبعضهم صوّره كأبرز ملهمي علم الاجتماع الأمريكيّ المعاصر. وآخرون قالوا إنّ قدراته المنهجيّة والتّحليليّة تفوق بكثير قدراته النّظريّة واسهاماته التّنظيريّة1.

ومن المعروف أنّ أحد أسباب شهرته يعود إلى التّمجيد الذي حظى به بين المفكّرين الأمريكيّين، ولا سيّما هذا التّماهي الذي أبداه عالم الاجتماع الكبير تالكوت بارسونز بشخص ڤيبر وبأعماله، ويرجّح كثيرٌ من الباحثين أنّ هذا الاهتمام الأمريكيّ والتّمجيد الكبير بـ ڤيبر يعود إلى مناصرته المطلقة للرّأسماليّة والطّبقات البرجوازيّة في مواجهة المدّ الماركسيّ الذي كاد يقتحم أبواب أمربكا الفكريّة الموصدة في مواجهة المدّ الفكريّ الماركسيّ الذي يهدّد النّظام الرّأسماليّ، ويقلب له ظهر المِجَنّ، مهدّداً بالثّورة البروليتاريّة التي تشكّل الشّبح الذي يقضّ مضاجع الرّأسماليّة العالميّة في حينها. وهذا يعني أنّ ڤيبر كرّس نفسه لمناهضة الفكر الماركسيّ الثوريّ في أساسه وجوهره².

ومهما تكن الانتقادات التي وجّهت إلى ڤيبر وتصوّراته المثاليّة، ومهما تكن الإشادات التي عظّمت أعماله، سيبقى ڤيبر درّة مضيئة في عالم الفكر الإنسانيّ، ولا يمكن لأحد أن يقلّل من شأن العطاءات الفكريّة التي قدّمها في مجال علم الاجتماع والسّوسيولوجيا النّقديّة.

لقد أبدع ڤيبر في دراسته حول تأثير القيم في نشوء الرّأسماليّة وتطوّرها، لكنّه كما يرى كثيرٌ من المفكّرين قد بالغ في النّظر إلى الأفكار والقيم بوصفها الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، رغم أنّه لم ينكر أهمّيّة العوامل المادّيّة في المجتمع، لكنّه أكّد تبعيّتها للعوامل الفكريّة والثّقافيّة. وقد رفض تحت غطاء تأييده للنّظام الرّأسماليّ فكرة التّغيير والثّورة ورأى "أنّ العمّال قد يكسرون أغلالهم بالثّورة لكنّهم لن يكسبوا شيئاً من ورائها3. وقد أبدع ڤيبر في تنميط الفعل الاجتماعيّ وظواهر الاجتماع ضمن أنماط مثاليّة، "لكن هذه الأنماط المثاليّة التي قدّمها عن السّلطة والفعل الاجتماعيّ لا تعدو أن تكون أنماطاً تصوّريّة لا تستند على أدلَّة واقعيَّة، كما أن افتراضاته عن الطَّبيعة المثاليّة للواقع الاجتماعيّ وبخاصّة مقولته التي مفادها أنّ الرّأسماليّة نشأت عن الرّوح البروتستانتيّة لا تستند إلى أدلّة تارىخيّة إمبيريقيّة"4.

^{1 -} عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 94-95.

^{2 -} المرجع نفسه، ص 94-95.

³⁻سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، دراسة نقدية، مرجع سابق، ص 128.

⁴⁻ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12- خاتمة: تأثير ماكس ڤيبر:

يشكّل ڤيبر واحداً من أخطر المفكرين وأهمّهم في القرن العشرين، وإذا كان قد شغل الوسط العلميّ في القرن التّاسع عشر بأفكاره ونظريّاته العبقريّة في الاقتصاد والسّياسة والإدارة والدّين، فإنّ عبقريّته الفكريّة قد تألّقت مجدّداً وتوهّجت بقوّة أكبر في القرن العشرين، وما زال وهج تألّقه الفكريّ يومض في فضاء القرن الحادي والعشرين، وذلك بعد قيام عدد كبير من المفكرين بترجمة متأخّرة لأهمّ أعماله إلى الإنكليزيّة والفرنسيّة والعربيّة وبقية اللّغات العالميّة، وانتشار أفكاره ونظريّاته في عالم الفكر في مختلف أنحاء العالم.

وإذا كان ڤيبر يصنف بين الآباء الخمسة الكبار لعلم الاجتماع، فإنّه بالإضافة إلى ذلك ينظر إليه بوصفه صاحب السّبق الأكبر في تأسيس علم الاجتماع الدّيني وعلم الاجتماع الإداريّ، فقد ترك إرثاً فكرياً لا يمعى في مجال سوسيولوجيا الموسيقا والسّوسيولوجيا الاقتصاديّة، واستطاع أن يحقّق هذه الإنجازات الكبرى في فترة زمنية قصيرة من العمر نسبيّا، إذ خطفته يد المنون في سنّ مبكّرة لم يكن حينها قد تجاوز السّادسة والخمسين من العمر.

ومن المهمّ في هذا السياق أنّ فيبر قد انفرد بالتأسيس العبقريّ لنمط منهجيّ جديد في علم الاجتماع يتمثّل في الأنماط المثاليّة. وقد شكّل كتابه "الأخلاق البروتستانتيّة وروح الرأسماليّة " درّة أعماله الفكريّة بالإضافة إلى كتابه "الاقتصاد والمجتمع ". وقد كُتب عنه وعن أعماله المثيرة للجدل أطنانٌ من الكتب والدّراسات والأبحاث، وما تزال أعماله تشكّل مداداً فكريّاً لا ينقطع للباحثين والدّارسين في التّضاريس المعقّدة والعالية لنظريّاته التي لا تستنفد طاقتها ولا يتناقص وهجها، بل يتوهّج عطاؤها دائماً في كل دراسة وبحث جديد عن مواطن العبقريّة السّوسيولوجيّة في فضاءات نظريّاته الخلاّقة.

وقد اعتاد المفكّرون كما فعلنا نحن على المقارنة الدّائمة بينه وبين ماركس ودوركهايم، وقد حقّقنا في تخاصبه الفكريّ مع ماركس، وبيّنا أوجه الالتقاء والافتراق بينهما في آنف هذه الدّراسة. ويجدر في هذا السّياق الإشارة إلى أنّ عالم الاجتماع جون ركس Rex قد أشاد بعبقريّة ڤيبر السّوسيولوجيّة وعدّه من أعظم منظّري علم الاجتماع ومن أخطر السّوسيولوجيين في العصر الحديث، وذهب إلى أبعد من ذلك، إذ قدر بأنّ ڤيبر قد تفوّق على دوركايم في مجال الخصوبة الفكريّة في الحقل السّوسيولوجيّ. ولا يمكن حصر الشّهادات العالميّة لكبار المفكّرين في العصر الحديث حول التألّق العبقريّ لماكس ڤيبر، ولا سيّما في سوسيولوجيا الإدارة والأديان والاقتصاد وقد "صنّفه ألفن جولدنر A. Gouldner على أنّه من مفكّري العصر الحديث في مجال الحدس والبصيرة والفهم والتّفسير. وفي هذا السّياق يقدم دونالد ماك ري .D العصر الحديث في مجال الحدس والبصيرة والفهم والتّفسير. وفي هذا السّياق يقدم دونالد ماك ري Mack Rue والاقتصاد. ويتجلّى هذا التقدير لڤيبر، إذ أطلق عليه واصفاً أعماله بالمملكة السّحريّة في علم الاجتماع والاقتصاد. ويتجلّى هذا التقدير لڤيبر في رأي السّوسيولوجي الأمريكيّ النقديّ تشارلز رايت ملز (C. Wright)

¹ الذي قارن بين المفكّرين الذي شكّلوا الترّاث الكلاسيكيّ، ووجد أنهّم على عظمة ما قدّموه لم يكونوا على المستوى نفسه من الإسهام والعمق وذهب بالقول: إلى إنّ "اثنين من بينهم تعلو قامتهما على الباقين كافّة، ألا وهما كارل ماركس وماكس ڤيبر، (.....) وإذا كان علينا أن نحدّد أنفسنا بدراسة أعمال عالمين من علماء الاجتماع فإنّ اختياري سوف يقع على هاتين الشّخصيّتين"².

ويعد ماكس فيبرمن وجهة نظر أيديولوجيّة المنظّر الفائق للأيديولوجيا البرجوازيّة في العصر الحديث وقد ألهم بأعماله معظم المفكّرين السّوسيولوجيّين البرجوازيّين في أمريكا وأوروبا، الذين كرّسوا أنفسهم للدّفاع عن النّظام الرّأسماليّ وطبقاته البرجوازيّة ومصالحه في العصر الحديث. ولا يستطيع أحد من المفكّرين اليوم أن ينكر الإضافات الألمعيّة التي قدّمها ڤيبر للعلم والمعرفة في مجال العلوم الإنسانيّة، ولا سيّما في مجال علم الاجتماع. ومن البيّن أنّه أغنى علم الاجتماع بنظريّاته ومقولاته وأخصبه بعدد من المفاهيم الخلاقة الاستثنائيّة التي تدور في فلك البيروقراطيّة والعقلانيّة والتنظيم وعلم الأديان والأنماط المثاليّة والمكانة والسّلطة والطّبقة والتّنظيم الاجتماعيّ. وهي أنماط من المفاهيم التي تجاوبت مع متطلّبات النظام الرّأسماليّ الحديث بوصفه تنظيماً اقتصاديّاً يتميّز بقوّته وجبروته وسيطرته على معالم الحياة الإنسانيّة في العصر الحديث.

ومن مآثر ڤيبر أنّه قد سجّل "فتحاً عظيماً في تسليطِه الضّوء على أحد أهم العناصر والعِلل والأسرار التي كانت وراء نهضة الغرب، وفي اكتشافِه تلك الرابطة القوية بين الأخلاق والعمل، بين النّظريّ والتّطبيقيّ، بين الرّوحي والمادّي؛ إذ لاحظ أنه أنّى وُجدت البروتستانتية (في شِقّها الكالفيني بخاصة) -وهي التي تُقدّس العمل، وتُشجّع روح المبادرة، وتحُثّ أشياعها على مُراكمة الأموال وتجميع الثّروات... وكل ذلك في سبيل إرضاء الربّ واستدرار عطفِه وبلوغ الخلاص- انبعثت الرّأسمالية ونشطت"3.

والحق يقال إنّ ڤيبر ترك بصمته المميزة وعلامته الفارقة في العلوم الاجتماعيّة، ولا سيّما في مجال السّوسيولوجيا الدّينيّة، وقد شكّلت أعماله قوّةً هائلةً تجلّت في مدرسة فكريّة رائدة في علم الاجتماع تحت مسمّيات عديدة أهمّها: "علم الاجتماع الڤيبريّ" أو "السّوسيولوجيا التّأويليّة " ومازالت مدرسته تسّجل حضورها الفكريّ الكبير في مختلف ميادين العلوم الإنسانيّة المعاصرة.



1- تشارلز رايت ميلز (C. Wright Mills) عالم اجتماع أمريكي، (1916-1962) كان له سبق في تطبيق نظريات ماكس ڤيبر ونشرها في الولايات المتحدة، كما طبق نظريات مانهايم حول سوسيولوجيا المعرفة على الفكر السياسي وسلوك المفكرين. ويعد ميلز الأب الروحي للاتجاه الراديكالي في علم الاجتماع المعاصر، ومن الأعلام البارزين في اليسار الجديد بالولايات المتحدة الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين المنصرم.

^{2 -} ارفينج زايتلن، النظرية المعاصرة في عالم الاجتماع: دراسة نقدية، ترجمة: محمود عودة وإبراهيم عثمان، دار السلاسل، الكويت، 1989. ص 211.

^{3 -} براق زكريا، ماكس ڤيبر وأخلاق العمل والرأسمالية، مرجع سابق.